

المكتبة  
الثقافية  
العدد ٢٦٢

# الثورة الفرنسية

بقلم

أحمد عصام الدين





للكتب الثقافية  
جامعة حرة

٢٦٢

# الثورة الفرنسية

بقلم

أحمد عصام الدين

الرؤية المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١



# كلمة تقديم

(( ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ))

( قرآن كريم )

من أبرز حقائق التاريخ أن لكل حدث في الدنيا سببا يؤدي إليه ، ونتيجة تترتب عليه ؛ ويصدق هذا القول على الثورة الفرنسية ، موضوع هذا الكتاب ، صدقه على غيرها من أحداث التاريخ . فأى سبب أو أسباب دعت الى قيام الثورة الفرنسية ، وأى نتيجة أو نتائج ترتبت عليها ؟ هذا هو موضوع تقديم الكتاب .

بيد أنه لا هذه ولا تلك ، أعنى الأسباب والنتائج ، يمكن القارئ العربى أن يدرك حقيقتها ويتبين مداها ، حتى ترسم فى ذهنه صورة العصر الذى هبت فيه رياح الثورة ، فحين يستطيع القارئ أن يتبين ملامح العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، يستطيع أن يفهم الثورة بأسبابها ونتائجها على نحو يطمئن اليه .

## حقبة ثورية :

يدل التاريخ على أنه كانت هناك حقبة ثورية في نهاية القرن الثامن عشر ، على نحو ما كانت هناك حقبة اصلاح ديني، بروتستانتى في نهاية القرن السادس عشر، (١) فقد انتشر عدم الرضا حيال أنظمة الحكم وأحوال المجتمع، وكانت تتماثل الافكار التى انبثقت فى بلاد كثيرة تطلب تغييرا ، تطلعا الى حياة أفضل . وقد بلغ الاتفاق الفكرى فى هذا الاتجاه حدا لم يعد يتعذر معه فهم لم كانت كلمات مثل « الارستقراطية » و « الاقطاع » لا تروق فى نظر الذين يطلبون نظاما جديدا ؛ على نحو ما كانت كلمات مثل « الحرية » و « القانون » و « سيادة الشعب » و « الحقوق الطبيعية » لها موقع طيب فى نفوس أهل ذلك الزمن . ولئن اختلف معنى هذه الكلمات فى فرنسا عنه فى غيرها من البلاد التى شبت فيها نار الثورة ؛ فلأن الثورة فى فرنسا وحدها أحدثت تغييرات اجتماعية أعمق كثيرا مما أحدثته فى أى بلد آخر . وأكثر من هذا ، فإن فى فرنسا وحدها تم القضاء على أصحاب السلطة القدامى .

على أنه مهما يكن من شئ ، ومهما يقل عن ثورات تلك الحقبة التى امتدت ثلاثين عاما أتم بها القرن دورته ، تلك الثورات التى نجح بعضها وأخفق بعضها الآخر ؛ فإن أوروبا قد زلزلت من أعماقها اثر هذا المد الثورى الذى

---

(١) من مقال البروفسور ر . بالمر عميد كلية الاداب بجامعة

واشنطن الامريكية ، عن القرن الثامن عشر والثورات فيه .

جرفت موجته الأرض شرقا الى روسيا ؛ وطوت المحيط  
غربا الى أمريكا .

### الموقف فى بلاد الثورات :

واذا نحن أردنا أن نرسم صورة الموقف فى كل بلد  
من البلاد التى تعرضت للثورة اذ ذاك ، فان القس  
الهولندي الشاب هوجن دروب ، ابن هذه الفترة ، يحمل  
عنا عبء ما نريد ؛ فقد كان يرى أن كل دولة أوربية اذ  
ذاك يقوم فيها حزبان ، أحدهما حزب «الدولة والكنيسة»  
وشرعة الحق عنده قائمة على أساس حق الملوك الالهى ؛  
والآخر حزب « سيادة الشعب » ويرى أن ليس للحكومة  
سلطة الا ما كان مصدره الشعب ؛ وما قامت ثورة فى بلد ما  
الا مثل فيها الحزبان جانبي الصراع . وانما تتباين  
نتائج هذا الصراع وتفاوت وفقا لقوة كل من الفريقين  
وتركيبه وتطوره وأهدافه وتخطيطه (١) .

### الموقف الفرنسى :

ويرسم لنا البروفسور جورج ليفير ، المؤرخ  
المعروف، صورة الموقف الفرنسى ابان الثورة على نحو أوفق  
فيقول: «ان الثورة الفرنسية تمثل مقدم أربع حركات تورية  
متميزة معا - ثورة ارسقراطية وثورة بورجوازية وثورة  
فلاحين وثورة أهل المدن من موظفين وعمال محال ومن  
اليهم . وقد كان تلاقى هذه القوى الأربع هو الذى خلق

(١) المصدر السابق .

الثورة الكبرى • كما أن اختراق هذه القوى أو حلولها فى أوقات مختلفة هو الذى كان يعرقل سير الثورة أو يطيل أمدها • (١)

ومن ثم فقد كانت الارستقراطية المتמרدة تعاونها البرجوازية مؤقتا هى التى دعت لويس السادس عشر الى عقد مجلس طبقات الأمة عام ١٧٨٨ ، وكان الخلاف بين الأشراف والبرجوازية أو ان شئت فقل رفض البرجوازية قبول أهداف الثورة الارستقراطية هو الذى حول مجلس طبقات الأمة الى جمعية وطنية فى ٣ يونيو عام ١٧٨٩ • ولم يساعد الجمعية على البقاء غير ضمان البورجوازية لمطالب الفلاحين • وكانت ثورة صغار القوم من عمال المحال وموظفى مدن فرنسا هى التى قوت مركز الأحزاب المتقدمة فى الجمعية •• وصفوة القول ان كل طبقة كانت تختلف مع الأخرى فى نواح كثيرة ؛ ولكن عملها معا هو ما أخذ بيد الثورة فأنجحها الى درجة مكنتها من قطع طريق العودة الى النظام القديم •

وفى ضوء ما تقدم ، يمكن القول على وجه العموم بأنه لولا الثورة الارستقراطية لما كان مجلس طبقات الأمة ، ولولا ثورة البرجوازية لما كانت الجمعية الوطنية ، ولولا ثورة الفلاحين لما ألغى الاقطاع ؛ ولولا قلق الشعب لما قويت وقفة البلاد فى وجه رد الفعل ؛ ولولا المؤازرة الشعبية من (١) من مفتط للأنستاز بالر فى مقاله الذى سبقت الإشارة اليه .



حضر فرنسا وريفها لما وجد جيش يقف في وجه التحالف  
الدولى الاول ، على نحو ما تحكيه بالتفصيل صفحات هذا  
الكتاب .

أما في بلدان أوروبا الأخرى ، فلم يكن قيام الثورة  
يمضى على طول الخط ، بمعنى أنه لم يشمل الطبقات  
جميعا ، فكانت الثورة لا تكاد تشب نارها ، حتى تطفىء  
جذوتها قوة السلطان القائم .

ونتناول الآن أسباب الثورة الفرنسية .

### أسباب الثورة فى فرنسا :

كانت للثورة الفرنسية نفس الأسباب التى دعت  
الى ثورات أخريات القرن الثامن عشر ، ومن هنا فهى أسباب  
عامة ، أما الأسباب الخاصة التى تفسر لنا لم كانت ثورة  
فرنسا أعنف ثورة وأبعدها دلالة ؛ فنرجى الحديث فيها  
حتى نفرغ من حديث الأسباب العامة .

### أسباب الثورة العامة :

من أسباب الثورة العامة التركيب الاجتماعى فى  
تلك الحقبة من حقبة الانسانية ، فالنظام الاقطاعى أخذ  
يتحظى تدريجيا ، بل هو لا وجود له آنذاك فى انجلترا  
 وأمريكا ، وحتى فى شمال ايطاليا . وطبقة البورجوازية  
تنمو وتسعى الى السلطان السياسى الذى ليس لها منه  
حتى الآن نصيب ، وهى تثرى دائما ، فهى تريد أن تجعل

من ثرائها قوة تبلغ بها الى ما تريد . وأصحاب الأراضي  
والفلاحون ذرو الملكيات البسيطة يعيشون حياة طيبة  
شيئا ما ، ينعمون بحظ من تربية وثقافة تدفعهم الى  
محاولة التخلص من بقايا نظام الاقطاع . كما أن زيادة  
السكان خلفت مشكلة ساعد على قيامها قلة عدد الوفيات  
بفضل التقدم الذي يحمل العصر طابعه . وقد كان لهذه  
الزيادة في فرنسا وغيرها ، فيما يغلب على الظن ، فضل  
التحول الاقتصادي في الغرب في النصف الثاني من  
القرن الثامن عشر ، الذي شاهد تقدما في وسائل الزراعة  
وأساليبها ، بل وفي اختراعات سميت فيما بعد بـ «الثورة  
الصناعية» مما أدى الى الانقلاب الاجتماعي بوجه عام .  
هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد كان الفلاسفة  
الذين يوجهون أفكار العصر متأثرين بأعمال لوك وسبينوزا  
وديكارت ، على أن النتائج التي خلصوا اليها كانت  
تختلف اختلافا كبيرا من النواحي السياسية والاقتصادية  
والاجتماعية . ولا يغيب عن الذهن أن حركة التنوير ،  
بنت القرن ، قد ساعد على نموها قيام الجمعيات الفكرية  
في تلك الأيام .

على أنه يصعب القول بقيام ثورة ما دون أن يكون  
هناك ما يحركها من قطاع السياسة . فقد زادت الضرائب  
بفعل زيادة حاجة الحكومات ، وحكومة فرنسا احداها ،  
الى المال من جراء حروب القرن الثامن عشر ، حتى امتد  
قانون جباية الضرائب الى الاشراف وهم المعفون من قبل

من أداء ضريبة ما • فكان كل من الفريقين ، الحكام والأشراف ، يسعى الى عضد له من طبقة الفلاحين والعمال ، وهم خطر قائم مائل فى أوربا كلها وقتذاك •

هذه هى أسباب الثورة العامة ، وهى على نحو ما رأينا ، أسباب دعت الى قيام الثورة فى أكثر من بلد غير فرنسا ، فقد قامت فى فنلندا ، وفى بوندا ، وفى ايطاليا ، وغيرها ، وفى هذه الأقطار كلها ، كان يسم الثورة هذا الطابع المشترك •

### أسباب الثورة الخاصة :

تضافرت عوامل كثيرة فى فرنسا خاصة على قيام الثورة فيها ، فقد تزايد السكان حتى لم يعد بوسع الحكومة أن توفر لهم الغذاء الكافى ؛ وقد حرمت السلطة انسياسية على أبناء الطبقة البرجوازية الغنية المتكاثرة ، وكانت فى فرنسا أكبر عددا منها فى أى بلد آخر • وقد رغب الفلاحون عن مساندة نظام الاقطاع الذى أخذت شمسهُ تغيب عن الوجود فى أقطار أوربية كثيرة فى تلك الأيام • وكان هناك اهتمام بالأعمال الفلسفية التى أخذ الناس يقرءونها فى فرنسا أكثر مما يقرؤها أهل أى بلد آخر ، مما تعكس صورته صفحات هذا الكتاب • وأخيرا ، كان اشتراك فرنسا فى ثورة التحرير الأمريكية يرهق ميزانية البلاد ارهاقا شديدا ، وقد ساقها الى ذلك سوقا شعبها الذى سبقها الى مد العون الى الأمريكين ، وكانما ترهص

حركته بما يوشك أن يقع في فرنسا ذاتها بعد قليل .  
وتحضرني هنا كلمات تاليران في مذكراته (١) : « لم نكن  
نتحدث عن شيء سوى أمريكا » ، يرجع بها صدى سني  
ما قبل الثورة الفرنسية . ولا عجب ، فقد أدهش  
الفرنسيين ما خلق الأمريكيون من حكومات جديدة عن  
طريق التخطيط العقلي والتدبير العملي ، تلك الحكومات  
التي قامت في الولايات ، ثم هي تجتمع في شبه مؤتمر  
عام له سلطان أعلى فكأنهم ، أي الأمريكيين ، قد منلوا لما  
أنت به فكرة « العقد الاجتماعي » عند روسو وأقاموا  
الدليل على صحتها .

ونمضي الى حديث نتائج الثورة الفرنسية ، خاصة ،  
وعامة .

لقد كانت للثورة الفرنسية نتائج تكاد لا تحصى ،  
وانما نتناول بالكلام هنا منها تلك التي لا معدى لنا عن  
ذكرها .

### نتائج الثورة الخاصة :

كانت أولى نتائج الثورة الفرنسية الغاء الملكية وقيام  
الجمهورية ، ومعنى هذا ، العمل بمبدأ «سيادة الشعب»  
في حكم البلاد ؛ وكذلك الغاء الاقطاع ، وعلان حقوق

(١) الجزء الاول من مذكرات تاليران «Memoires» Talleyrand :

التي صدرت ما بين عامي ١٩٥٣ - ١٩٥٥ .

الانسان ، وتنظيم الحياة السياسية على أساس دستوري  
جديد يكفل لأفراد الشعب الحرية والاخاء والمساواة أمام  
القانون ، وانبثاق الوعي السياسى وقيام الصحافة  
السياسية ، والأخذ بالنظام الانتخابى فى القضاء والادارة  
المحلية والكنيسة ، وازدهار الزراعة نتيجة للتشريعات  
الاجتماعية ، وانتعاش الاقتصاد الفرنسى ، وازدياد قوة  
الجيش الفرنسى الذى صار المثل الأعلى لجيوش العالم  
قاطبة ، فأخذت بنظامه وأساليبه دول كثيرة من بينها  
مصر (١) .

هذه ، فيما نرى ، أهم نتائج الثورة الفرنسية فى  
داخل فرنسا ، أما نتائجها خارج بلادها فكانت مختلفة  
متباينة على النحو التالى :

### النتائج العامة للثورة

لعل أهم نتيجة عامة للثورة الفرنسية هى اعلان  
حقوق الانسان ، فهذا الاعلان لم يكن وقفا على الانسان  
الفرنسى وحده ، وانما امتد ليشمل كل انسان فى العالم ،  
فقد جعلت منه الثورة الفرنسية «نقطة بداية جديدة لآمال  
شعوب الأرض وأجناسها» ولئن ظلت تلك الوثيقة مدى ربع  
قرن أو يزيد بعد اعلانها ميثاق كل داعية الى الاصلاح فى  
أوربا ، فقد عادت تؤكده الأمم المتحدة ، بعد حربى عالميتين

(١) أنظر مدى تأثير الشرق العربى ومصر خاصة بالثور الفرنسية

فى صفحات الكتاب الأخيرة .

لقى الجنس البشرى منهما شرا كبيرا ، فتنشئ لجنة خاصة  
يتلك الحقوق وقد أصدرت اعلانا بها ، وكأنها تزيج ركام  
السنين عن تراث شرعى وارتق عن الأنظار أطماع البشر ،  
ومن نتائج الثورة العامة الاخرى أنها أدارت عجلة مذاهب  
الديموقراطية والقومية والاشتراكية (١) على نحو لم يعرف له  
مثيل من قبل ، وهى التى لما تخف حدة تيار بعضها الى  
الآن ، كما دفعت روح الحرية شعوب أوروبا للانقضاض على  
نابليون ، ابن الثورة الفرنسية وقد أصبح امبراطورا .  
كذلك قضى انتشار أفكار الثورة فى أوروبا تقريرا على  
النظام الذى كان يدعو الفلاح عن طريق المعاملة القاسية  
الى الدفاع عن البلد الذى يجوعه ، كما أدى الأخذ بتشريعات  
الثورة الاجتماعية فى كثير من الاقطار الى ازدهار الزراعة  
والاقتصاد بها ، على أنه لم يكن كل ما قالت به الثورة  
يحدث أثره فى البلاد الأخرى ، حتى مبادئها العامة ،  
وأعنى مبادئ الحرية والاخاء والمساواة ، فيذكر لنا  
المؤرخ جرانث فى كتابه «أوروبا فى القرن التاسع عشر» ،  
أن هذه المبادئ « لم تناسب العقل الألماني ، وإن دخل  
كثير مما ظهر فى فرنسا فى حياة ألمانيا العامة » .

ومن أبرز نتائج الثورة مولد فكرة الرأى العام على  
يديها ، فلعلها ، أعنى الفكرة ، وجدت لأول مرة بمعناها

---

(١) مما يتضح ويبرز فى ثورة روسيا عام ١٩١٧ وفى الفاشية  
والنازية بعد ذلك ..

الحالى ، أى كما نفهمها نحن أبناء القرن العشرين ، فى بعض دول أوروبا . فقد بدأ النظر الى ما يجرى من أحداث على أنه شيء لا ينبغى أن يكون من شأن الحكومات وحدها بل ينبغى أن يكون من شأن الجميع . وقد أعان على هذا أن كانت السياسة تشغل الأذهان وقتذاك أكثر من غيرها ، ومن ذلك منافحة الأمريكين عن الحرية والمساواة وغيرهما من المبادئ الانسانية النبيلة التى يهتم أمرها الناس قاطبة . ويومئ تقدم الصحافة فى ذلك العهد وبعده الى الشيء ذاته ، فقد صدرت بين عامى ١٧٨٩ و ١٨٠٠ حوالى ١٣٥٠ صحيفة معظمها قصير الأجل ونتيجة أخرى أن أصبحت للطبقات الدنيا كلمة مسموعة فى بلادها ، وهى التى كانت قبل عام ١٧٨٩ لا خطر لها ، بل لا شأن لها . هذه الطبقات أخذت تلعب دورا حاسما فى تقرير الأحداث فى حقبة الثورة ، فى الثلاثين سنة الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكلمتها لما يخرس صداها الى يومنا هذا فى توجيه مصائر بلادها .

### واخيرا :

وفى ختام الكلام عن أسباب الثورة الفرنسية ونتائجها ، لا ينبغى لنا أن نغض من حقيقة لفت اليها

١٠ جودوين ، (١) في كتابه الرائع «الثورة الفرنسية»، وهي حقيقة تتكون من شطرين ، الأول ، أن السبب الاصلى لقيام الثورة الفرنسية والذي تتفرع عليه بقية الأسباب مما جرت به السطور السابقة ، يتمثل فى وجود «ارستقراطية متمردة» ، والآخر ، أن نتيجة الثورة الفرنسية التى ترد إليها بقية النتائج جميعاً مما سبق ذكره ، هى أن الثورة قد أبرزت تطور فكرة « سيادة الشعب » ، ذلك المثل الأعلى الذى كشفت الثورة كذلك عن متضمناته ، وبعبارة أخرى ، عن كل ما يمكن أن يبلغ اليه القائلون به فى كل ثورة تلى .

### وبعد :

فالثورة الفرنسية قد كانت وبقيت للنهاية ، وتلك حقيقة لا تقبل الجدل ، «صراعاً لا رحمة فيه ولا هوادة بين الارستقراطية والديموقراطية» . ذلك الصراع الذى ترجع صدهاء كل ثورة قامت فى قديم الزمان ، وتقوم فى هذه الأيام التى لم يوار الزمان بعد عن أنظار أهلها « نظاماً طبقياً » أدرك العقل السليم خطاه منذ زمن طويل ، وإن ظنفته صحيحاً قلة ترى غير هذا الرأى .

---

(١) ١ . جودوين A. Goodwin أستاذ التاريخ الحديث فى جامعة مانشستر ، فى كتابه «الثورة الفرنسية»  
 «The French Revolution»  
 فى سلسلة الكتب التاريخية التى تصدرها جامعة هاتشنسن ، ولعله أحدث كتاب فى الموضوع .



## الثورة الفرنسية ... بيضاء

(( ان أساس كل حكومة حرة هو عدم خضوع أى شعب لأى شعب آخر قانونا ، ولا لأى قانون عدا القانون الذى اختاره هو لنفسه ، والتمتع بالسيادة التامة فى بلاده والاستقلال التام من أية سلطة بشرية مفروضة عليه ))  
( مارا )

يروى لنا التاريخ أن لويس السادس عشر آخر ملوك فرنسا الذين تولوا الحكم فى ظل النظام القديم ، ارتقى الى العرش عام ١٧٧٤ م ، وأعدم ولما يمض عليه عشرون عاما بعدها ، ويشكل هذا الحدث ، اعدام الملك ، خطرا على نظرتنا السليمة الى السنوات الخمس عشرة الاولى من حكمه ، فقد نظن أن فرنسا بما فعلت ، قد وجهت اليها اهتمام أوروبا كلها ، تريد أن تصرفها عن نظام حكم لآخر فيه ، وأن الجو كان مفعما بعناصر العاصفة القادمة . ولكن الواقع كان يفاير هذا الظن تماما ، فقد كانت الشخصية الاولى فى أوروبا وقتئذ هي فردريك الأكبر ملك

بروسيا ، وكان بلده يمرح فى ظل السمعة الكبيرة التى جلبها له خوض غمار حروب قد وضعت أوزارها منذ قليل .  
كان النظام فيها ، فى بروسيا نظاما أوتوقراطيا أميناً فى  
عنف ، فعلا كغيره من الأنظمة التى لا تعترف بضرورة  
الحرية ، وإن كان لم يجهز عليها ، مما كان يومئذ إليه  
الافق ادى كن يتراحب امام آمال العصر الجديدة على  
نحو ما ترسم صورتها الأفكار الجديدة : فهذا فوليتير ينعم  
منذ طويل بالاقامة فى قصر فردريك الأكبر فى بوتسدام ،  
بينما يدفع الفكر الفرنسى عجلة الحياة العقلية فى ألمانيا مما  
نرى آثاره فى أعمال جوته وشيلر وغيرهما من أقطاب  
الفكر والأدب فى ألمانيا ذلك الزمن .

## أيام حكم لويس الاول

وبدا فى فرنسا أن الحكم الجديد يبشر ببداية عهد  
طيب ، خير من سابقه ، فقد تنفس الناس الصعداء مع  
نهاية حكم لويس الخامس عشر ، وعم الارتياح معظم  
الطبقات ، لا سيما وأن امتيازات بلاطه لم تكن تعززها أية  
انتصارات خارجية . ومع أن فرنسا كانت دولة ذات نفوذ  
عن طريق كتابات أصحاب العقول فيها ، فانه لا البلاط  
الفرنسى ولا الحكومة الفرنسية ، كانت تفيد منها فى  
شئ ، فقد كان الفكر الفرنسى الذى كان يشد أزر سلفه  
الكبير لويس الرابع عشر لا يأتلف مع نظام الحكم فى ظل

لويس الخامس عشر • اذن ، فقد رحب الناس بمقدم الملك الجديد ، الملك لويس السادس عشر ، لأنهم رأوا فيه لونا من التغيير ، تطمئن اليه نفوسهم ، ولقى شخص الملك ذاته من جانبهم كل حب وتقدير واحترام • فقد كان لويس السادس عشر ، يفيض قلبه بحب الانسانية التي سادت نزعتها أيام حكمه الاولى ، وارتسمت آمالها في أفق حياة البلاد في تلك الفترة من تاريخها ، وهي نزعة وآمال أبدى صاحبنا استعدادا للأخذ بيدها ونصرتها عن طريق تغيير نظام الحكم ، فقد كانت سنته في أيام حكمه الاولى ، بل وديده في ساعاته الأخيرة ، واحدة لا تتغير ، تلك أنه ملك يحب شعبه • وكانت زوجته ، ماري انطوانيت ، وهي أميرة نمسوية ، امرأة طيبة القلب لامعة الذهن جميلة الخلقة حقا • الا أن أصلها النمسوى جر الوبال عليها وعلى زوجها ، فقد غضب الشعب عليها حين عادت فرنسا الى العداء مع النمسا ، فكان الشعب يدعوها دائما « المرأة النمسوية » ، كما أفقدها أصلها الأجنبى من ناحية أخرى القدرة على العطف التام على الأفكار الجديدة السائدة وقتذاك ، فكانت ارادتها التي فاقت ارادة زوجها قوة ، مصدر الوحي في كل نصيح تسديه الى الملك في ساعات محنته ، وما أشد خطر مثل هذا النصيح في الأوقات العصيبة !

بيد أن هذا كله انما يتعلق في الواقع بمرحلة تالبة من مراحل حياة حاكم فرنسا المتعس ، ومن ثم فلا بنال شيئا من اهتمامنا هنا •

لما تولى لويس السادس عشر الحكم ، بدأت فرنسا تدخل فى طور جديد من حياتها ، فقد اتصل الجهد المخلص الأمين فى ظل الملكية • القائمة ، وان لم يستطع شئ أن يوارى عن أنظارنا عدم رغبة أحد فى التمسك بالنظام القديم ، لسبب بسيط فى الغاية ، هو أنه لم يكن يؤدى دوره فى الحياة • فقد كسدت التجارة ، وانحطت الصناعة ، فلم تستطع فرنسا اللحاق بانجلترا فى تقدمها المستمر • كانت أرض فرنسا غنية تؤتى أكلها طيبا كثيرا ، ولكن نظام الامتيازات ، الذى أعفى طبقة الاشراف ورجال الدين وأهل الصلة بالبلاط من قدر كبير من الضرائب التى ينبغى سدادها ، أفقد الحكومة القدرة على مواجهة التزاماتها ، ومن ثم فلم يكن بد من أن تقوم ثورة ، أو شئ من ثورة فى فرنسا • فإذا كانت الثورة قد جاءت إليها آخر الأمر ، فانما دعت إليها حاجة الدولة الى المال ، فقد أدت نفقات الحروب الكبيرة فى القرن الثامن عشر الى اضطراب المركز المالى للبلاد اضطرابا ذهب بأمل القوم فى استقرار قريب أو بعيد • وكانت أول حاجة واجهها المسئولون ، موازنة الدخل بالمنصرف ، وهى حاجة يمكن سدها فيما كان يقول رجال الاقتصاد عن طريق تغيير فى أساليب الحكم الفرنسى •

وفى أول وزارة تولت الحكم فى عهد لويس السادس عشر ، كان موريبا يشغل منصب رئيس الوزارة ،

ولكن ترجو ، وزير المالية فيها ، كان أبرز شخصياتها ،  
فقد سبقت كتاباته الوزارة في تعريف الناس به . لم  
يمكث ترجو في الوزارة أكثر من عشرين شهرا ، ولكن  
الناس ظلوا يلتفتون دائما ، اذا هم التفتوا الى الوراء  
أبدا ، الى هذه الفترة من حياة الوزارة الفرنسية ، على أنها  
الوقت الوحيد الذي كانت تسنح فيه فرصة الاصلاح  
الحكيم الرزين الذي يفوت الحاجة الى النورة . كان ترجو  
يريد ادخال عنصرى الأمانة والفعالية فى كيان الخدمة  
العامة - وهذه ثورة حقا . فقد كان يريد أن يحد بل يبطل  
سلطان الكنيسة الذى أخذت خطورته تتزايد ، وأن  
يدخل نظاما ضريبيا أعدل من سابقه ، وأن يثبت حرية  
التجارة فى داخل البلاد وخارجها . حقيقة لم يكن الرجى  
يأخذ بضرورة اشراك الشعب فى ادارة البلاد عن طريق  
عقد جمعية وطنية أو ما إليها ، على كثرة ما لفت نظره الى  
حسن مثل هذا الاجراء ، ولكن حقيقة أيضا ، أنه كان يعمل  
فى كل ما يصدر عنه ونصب عينيه الانسانية والعدالة ولا  
شئ سواهما . ومهما يكن من شئ فقد أثارت مقترحاته  
الاستياء الشديد من جانب الطبقات التى هددت مصالحها .  
ولم تلبث مؤامرة البلاط التى أخذت مارى انطوانيت فيها  
بنصيب ، أن نجحت فى عزل الوزير الكبير ، واحلال نكر  
محله . كان نكر من أرباب الأموال فى جنيف ، وكان  
بروتستانتيا ، ومن ثم فقد أثار تعيينه بعض الصعاب التى  
ذللها سلطان الملك الذى خفت مهمته كثيرا حين تنازل

الوزير الجديد عن مرتبه للدولة . ظل نكر حتى عام ١٧٩٠ موضع حب الشعب واكباره ، بل لعله كان أحب شخصية عامة اذ ذاك الى نفوس الناس ، وساعده على ذلك عدم أنانيته وأمانته وإيمانه بأنه يمثل آمال الشعب في هذه الفترة من تاريخ حياته ، وفي النهاية صلته بطبقة رجال الفكر والأدب ، غير أن الحقيقة هي أنه كان رجل مال عظيم ولم يكن رجل دولة عظيما . لقد قبل نظام فرنسا المالى والادارى كما وجده ، وأمل أن يمكن الحكومة ، بغير أحداث تغيير جذرى من أن تسير فى عملها عن طريق الاقتصاد والقروض الى ساعده سمعته المالية الطيبة فضلا عن علمه وخبرته الشخصية بشئون المال ، على عقدها بفائدة تقل كثيرا عن الفائدة العادية . بيد أن هذه الجهود لم تخلف أثرا كبيرا باقيا فى تاريخ فرنسا . ويضيق المقام هنا عن المضى فى حديث نكر والاقتصاد الفرنسى ، فنحن نكتفى بما ذكرنا مما يتسق وسير موضوع الكتاب . فقد حدث على ضفة الأطلنطى الأخرى أثناء تولى نكر وزارة المالية الفرنسية ، حدث كبير كان له أثره البعيد فى الشئون الأوروبية . فقد أخذ التوتر السائد فى العلاقات بين الحكومة البريطانية وبعض المستعمرات الامريكية ، يزداد خطرا حتى انفجر الموقف فثارت المستعمرات علانية على النفوذ البريطانى ، ويذكر العارف بالتاريخ جيدا أن فرنسا وانجلترا كانتا تناصب كل منهما الأخرى العداء طيلة القرن الثامن عشر ، الذى تمخضت حروبه بينهما عن

فقد فرنسا مستعمراتها وممتلكاتها في الهند وغيرها .  
وبدت ذكرى هزائم تلك الحروب الأليمة تهيب لفرنسا  
فرصة الأخذ بالثأر في هذا النزاع الأمريكى البريطانى .

## فرنسا والحرب الأمريكية :

ترددت الحكومة بادية الأمر ، فقد كانت تخشى  
تكاليف الحرب الباهظة ، وتعمل حسابا لقوة عدوها  
البحرية . ولكن الشعب لم ينتظر حتى تلعب الحكومة  
دورها ، فاذا لافاييت الذى فاص قلبه بالمشاركة الوجدانية  
تجاه القضية الأمريكية يعبر المحيط مع فرقة من المنطوعين  
من أبناء جلدته الى أمريكا فى ١٩ أغسطس عام ١٧٩٠ .  
ولم ينس الأمريكيون أبدا هذه المغامرة الكريمة التى  
مازالت تشد ذكراها أمريكا دائما الى جانب فرنسا ، فقد  
أرغم الرأى العام الفرنسى حكومته على تعضيد حركه  
لافاييت بالعمل الرسمى . وما أعقب ذلك من أحداث  
يكاد يجاوز المدى فى أهميته بالنسبة للعالم عامة ، وللثورة  
الفرنسية خاصة . فقد اسهم العون الفرنسى فى انتصار  
القضية الأمريكية فى صورة حاسمة اذ اشتركت كثرة من  
القوى الأوربية فى الاحتجاج على سيادة بريطانيا البحرية .  
وهزم الأسطول الفرنسى الأسطول البريطانى خارج  
المياه الأمريكية فخضعت مدينة يورك ، ونشأ عالم جديد

بالفعل . وكان في كفاح فرنسا البعيد شيء خلف انطباعته العميقة في أذهان الفرنسيين ، فقد غلب جيش من الوطنيين جيشا مرتزقا للانجليز ، وكان الدستور الأمريكي في طريقه الى النور . بدأ هذا الدستور باعلان الاستقلال الذي يرجع صدى أفكار روسو ، وتم تشييد صرحه وفق رسالة مونتسكيو الشهيرة : « روح القوانين » ، أما دين الدستور الأكبر للدستور الانجليزى ، فقد بقى بطبيعة الحال في خلفيته . فالحرية التى كتبت عنها فرنسا وحلمت بها دهرا طويلا ، قد أنمت نبتها وأورقت وأزهرت ثم أينعت فيما وراء الأطلنطى . وقوى الاعتقاد بأن أرض فرنسا لن يمضى وقت طويل حتى تترعرع فى تربتها شجرة الحياة الحرة النضرة الطيبة .

ولكن الحرب الأمريكية كان لها أثر سيئ بالغ السوء من جهة أخرى ، فقد أبهظت النفقات الخزانة الفرنسية ، ولم تعد اجراءات نكر الاقتصادية الحريصة قادرة على مواجهة نفقات الحرب طويلا ، وما هى الا أن أصدر الوزير بيانه عن الحالة المالية فى البلاد . ومهما يقل عن عدم دقة هذا البيان أو عدم سلامة الدوافع التى حدث بصاحبه الى اصداره ، فان نكر كان يقصد به الى رأى العام ، والرأى العام وحده ، بعيدا عن دوائر المال . وكان لنكر ما أراد ، فقد أخذت تتسع دائرة قراءة البيان ومناقشته ، ولم تلبث دوائر البلاط أن أدركت خطره عليها ، فأسرعت تعزل نكر من منصبه عام ١٧٨١ ،



ولكن لتعود بالبلاد فى الوقت ذاته الى نقطة بداية الخطر ،  
وتضع أصبعها على زناد الثورة .

### الطريق الى الثورة :

الا أن بين هذه الفترة الحرجة وقيام الثورة بالفعل ثمانية أعوام ، لم يكن يستحيل على الحكومة خلالها اجراء ما من شأنه أن يجنب البلاد خطر الثورة ودمارها القادمين على طريق الأيام . فلم تكن ثروة البلاد قد نضب معينها ، ولم يكن هناك ما يبعث على الظن بأن فرنسا تشكو من فقر أو حاجة لا مثيل لهما فى غيرها من البلاد الأوروبية . ولم يكن نظام الملكية نظاما عفا عليه الزمن فى رأى الناس ، فقد كان يلقي تأييدا فى شخص الملك ذاته من معظم الشعب . غاية ما فى الأمر أن الارادة الحديدية التى تكفل وحدها سير أداة الحكم فى طريق تحقيق الغايات القومية ، تلك الارادة لم يكن لها وجود فى المجالس على عرش فرنسا . ومن هنا كانت التهمة التى درج بعض المؤرخين على توجيهها الى لويس السادس عشر من أنه قاوم الثورة فترة من الزمن أطول مما كان ينبغى له ، فجلب بذلك على نفسه الويال ، ومهد الطريق الى مأساة خاتمة حياته على نحو ما يعرف الجميع ؛ كانت هذه التهمة باطلة من أساسها ، اذ كانت تناقض الحقيقة والواقع ؛ فان بلوى لويس ، لم تكن صلابته وعدم مرونته ، وانما كانت ضعف ارادته ، فهو لم يكسر وانما عصر ، على نحو ما سيعرف القارىء تفاصيله بعد قليل .

## احياء تقليد قديم :

تولى كالون وزارة المالية بين عامى ١٧٨١ ، ١٧٨٧ ، وكان أول أمره محل عطف البلاط الذى لم يتدخل الوزير فى شئون نفقاته ، بل كان يرى أن البلاط الذى يسرف يسر الاقتراض ، فعاش طويلا عن طريق الاقتراض بفوائد كبيرة ، غير أنه استطاع أن يرى أخيرا أن الملكية لم يعد بوسعها حل المشكلة المالية عن غير طريق اشراك الشعب معها فى الأمر . ومن ثم فقد عاد الى تقاليد الملكية فى القرنين السادس عشر وسابع عشر ، ودعا الى الاجتماع « مجلس طبقات الأمة » ، الذى كان يمثل الأشراف ورجال الدين والشعب .

ولم يحدث من قبل أن اجتمعت هذه الهيئة فى فرنسا من أجل أمر جليل أو غيره منذ عام ١٦١٤ ، ومن ثم فدور هذه الهيئة انما كان مما يعنى الباحث والمؤرخ وحدهما ، ويروى التاريخ أن هذه الهيئة قد تبدد شملها وزال وجودها منذ خلافتها مع الملكية أيام ريشيليو الذى انتصر للأخيرة . ومهما يكن من شيء ، فقد كان هذا ، وأعنى دعوة هذه الهيئة اجراء يروق للناس فى فرنسا ذلك الوقت ، فقد كانوا يتوقون الى التمثيل انيابى ويتحرقون شوقا الى الانتخابات ، ومع هذا ، فلم تكن هذه الهيئة قادرة على علاج الموقف الطارئ فى فرنسا . ولم ؟ لأن الهيئة فى صورتها المائلة مؤلفة من ثلاثة أطراف هى الكنيسة والاشراف

والشعب ، ومن هؤلاء تتماثل مصالح الطرفين الاولين ، ومن ثم فلا قيمة للتصويت على أى موضوع . ثم ان ممثل الشعب لم يكن يزيد دورهم عن عرض المقترحات وتقديم الظلمات « كراسات الشكاوى » المعروفة الى الملك ، وشتان بين هذه الهيئة وبين البرلمان البريطانى المعاصر لها ، ثم بينها وبين الجمعية الفرنسية التى لم تلبث أن قدر لها توجيه مصائر الشعب الفرنسى .

### وزارة بريين وفشلها :

سقط كالون عام ١٧٨٧ ، وتبعه الكردينال دى بريين وهو آخر الكرادلة الذين استخدمتهم الملكية الفرنسية فى حكم البلاد . اتبع الكردينال سبيلا يودى بالبلاد الى طريق الأمان والسلام ، فاقترح استخدام نفوذ الملك فى فرض الضرائب على طبقات أصحاب الامتيازات ، ولكن حال دون ذلك «برلمان باريس» ، فقد كانت مهمته تسجيل القوانين التى يصدرها الملك ، ولم يكن يسرى مفعولها حتى يتم تسجيلها . كان البرلمان يرفض تسجيل القوانين الملكية ، فهم الملك أن يستخدم سلطاته ولكن دون جدوى . وشيئا فشيئا قوى صوت الشعب الذى أصبح قوة سياسية على نحو لم يسبق له مثيل فى فرنسا . وكانت كتابات فولتير وصحبه تثير النفوس وتبعث فيها الاحساس بالقدرة على فعل أى شئ . لم يجد الملك بدا ازاء ذلك من عزل دى بريين واعادة

نكر ، ثم أعلن عزمه على عقد الجمعية العامة • وفي عام ١٧٨٨ ، تم عقد الجمعية الوطنية العامة ، وكان اجتماعها في فرساي التي تبعد اثني عشر ميلا عن باريس •

## أيام عصيبة :

الى هنا لم يكن في الأمر جديد ينبىء عن خطر قريب ، فنحن حيال ملك يريد انقاذ بلاده من ضائقة مالية شديدة أشرفت بها على حافة الافلاس ، فهو يدعو ممثلى شعبه على اختلاف طبقاته ، وللأجراء أكثر من سابقة فى تاريخ انجلترا السياسى ، فطالما اجتمع الملك والشعب هناك على حل المسئلة ، فلم لا ينجح فى فرنسا اجراء نجح فى انجلترا ؟ ولكن الواقع أن الثورة الفرنسية لم تعرف فى حياتها كلها أياما حرجة مثل تلك الايام الاولى من حياة الجمعية الوطنية العامة ، فالاختلاف على نظام التصويت ، وما اذا كانت هذه الهيئة هيئة تحمل طابعها القديم فهى مدعوة بإرادة الملك وحده يفضها حين يشاء ، أم هى جمعية ممثلة للشعب تمثيلا حقيقيا فهى برلمان وطنى ، هذه وغيرها كانت مشكلات ظلت بغير حل وقتا طويلا •

رفض ممثلو الشعب فى البداية كل تعاون مع الحكومة حتى نفل باجتماع الهيئات الثلاث فى غرفة واحدة، وبمبدأ التصويت الفردى ، بعد أن وافقت من قبل على أن يكون

عدد ممثلى الشعب مساويا لممثلى الطبقتين الأوليين مجتمعتين وأقلق الرفض الملك وأصحابه ، وأقلقه أكثر فأكثر ما كان يفضى اليه تجسد الموقف بالضرورة من فض الجمعية وبقاء الضائقة المالية حيث هى ، ودعا عجز الحكومة عن العمل الى ثقة ممثلى الشعب بجماعتهم التى بدأ يبرز قاداتها

## الشعب يتحرك :

فى ١٠ يونيو اقترح سييس الذى اشتهر بمعرفته للأصول الدستورية أن يدعو ممثلو الشعب أعضاء طبقتى رجال الكنيسة والاشراف الى الاجتماع معهم فى غرفة واحدة فان رفضوا ، مضوا هم ، فنصبوا أنفسهم ، وبدءوا العمل بلا رجال كنيسة ولا أشراف ولا نبلاء . ومهما تكن النية التى أضمرتها صدور رجال الطبقتين ، الكنيسة والاشراف حيال مثل هذا الموقف ، فان هيئة ممثلى الشعب كانت قد عقدت عزمها ألا تلين قناتها أو تحيد عن موقفها قيد أنملة بل هى ذهبت الى أبعد من ذلك ، فأخذت تفكر فى الاسم الذى ستعمل به فى مستقبل حياتها القريب . وفى ١٤ يونيو اقترح سييس مرة أخرى أن تدعو الهيئة نفسها « الجمعية الوطنية » وهو اسم رضيت به الجماعة وأقرته بأغلبية ٤٩١ صوتا الى ٩٠ صوتا . ويشكل هذا الحدث « نموذج الثورة الفرنسية فى واقع الأمر » . فقد أعلن ممثلو الشعب دعواهم أنهم يعملون من أجل الأمة الفرنسية

رغم أنف الملك ورغم أنف أصحاب الامتيازات<sup>١١</sup> ترى هل  
 يفلح ممثلو الشعب فى تحقيق دعواهم<sup>١٢</sup> . لقد أدرك الملك  
 وكذلك أصحاب الامتيازات خطورة الموقف . وما كان الرجل  
 ليلقى السلاح .١٠ فقد اقترح البعض عليه اجراء كاد ينساه  
 فى غمرة الأحداث حتى أهل القانون أنفسهم ، ذلك أن الملك  
 فى الزمن القديم كان اذا عقد جلسة ملكية أى حضر الاجتماع  
 بشخصه ، لم يكن بد من طاعة كلمته ، فالملك الآن سيعقد  
 دورة ملكية ، وسيعلن ارادته ، وستقبل فرنسا قولته .١٠  
 ولكن الخطة باتت بالفشل ، فلم يكن يدور فى خلد ممثلى  
 الشعب أن يخضعوا على نحو من الأنحاء ، وهم ، وقد  
 أخرجوا من دارهم الدستورية حتى تجرى الاستعدادات  
 للدورة الملكية ، مضوا يجتمعون فى ملعب للتنس قريب ،  
 وهناك أقسموا على أن يستمروا فى اجتماعاتهم فى وجه  
 كل معارضة من أى ناحية هبت ريحها ، وألا يتفرق شمل  
 الجماعة حتى تفرغ من وضع الدستور ، وشجعهم على المضى  
 فى طريقهم ما لاح لهم من انقسام فى صفوف رجال الدين  
 بفعل التباين الطبقي فيما بينهم ، وبالتالى فى موقفهم من  
 دعوى ممثلى الشعب . لقد كان المعروف أن رجال الدين ضد  
 الشعب ولكن يوم ١٩ يونيو أخلف الظن ، فاذ الطائفة  
 المقدسة تقرر بأغلبية صوت أن تنضم الى ممثلى الشعب .  
 وينضم بالفعل نصف رجال الدين اليهم يوم ٢٢ يونيو ،  
 قبيل عقد الدورة الملكية . وفى يوم ٢٣ يونيو ، يوم انعقاد  
 الدورة الملكية أعلن صاحب العرش عن اصلاحات كثيرة  
 انتواها فى النواحي المالية والادارية ، وعن قبوله قيام

الجمعية باعتبارها جزءاً من الدستور ، ولكنه أعلن في الوقت ذاته عن اصراره على نظام الغرف الثلاث في مناقشة شئون البلاد والتصويت عليها . واذن فقد أراد الملك أن يسلم زمام الأمور الى طبقات أصحاب الامتيازات ، وكان يهدد باستعمال القوة في القضاء على المقاومة في كل صورها . . هنا ثارت نائرة رجال الشعب ، ورفض القوم مغادرة البرلمان فلم يلجأ الملك الى استخدام القوة ، ينفذ وعيده ، وانما دعا اليه رجال الدين والاشراف وطلب منهم مخالفة ما أمر به ، والانضمام الى ممثلي الشعب ، وهذا جانب من صورة حقيقة الملك التي قدمناها للقارىء منذ حين . لقد كان لين الجانب تقود النزعة الانسانية تصرفاته جميعاً . وفي ٢ يوليو اجتمع أعضاء الهيئات الثلاث في غرفة واحدة ، مركز الداعين الى اصلاح فيها قوى يبعث على الاطمئنان ، ولم يكن هذا أمراً غريباً ، فقد دعا اليه شجاعة ممثلي الشعب ورجاحة تفكيرهم من ناحية ، وحاجة التاج الى المال من ناحية أخرى . ولم يغب عن الأذهان ما هناك من انقسام بين صفوف بطانة الملك ، فقد كان فريق منهم يرى أن من الخير أن يذعنوا للأحداث حتى تسنح فرصة يوجهون فيها ضربتهم القاضية .

### موقف القوى الرئيسية في البلاد :

وإذاً ففي فرنسا الآن ثلاث قوى رئيسية - الأولى هي الملك والنبلاط ، وهي الهيئة التي سلمت بمطالب ممثلي

الشعب ، وبعض أعضائها وعلى رأسهم الكونت دارتواخو الملك ، يأكل قلوبهم الأسف العظيم على ضرورة التسليم بمطالب ممثلي الشعب، ويتطلعون الى فرصة استرداد الارض المغتصبة ، ان صبح التعبير . والثانية هي الجمعية الوطنية ، وقد دعيت بعد قليل ، حين رأت في وضع الدستور أهم عمل تقوم به « الجمعية التأسيسية » ، وقد استمر يشترك في اجتماعاتها عدد كبير من رجال الدين والاشراف ، وان كان الأمر فيها بيد رجال الشعب وحدهم ، وكان معظمهم من الطبقات المتوسطة وجلهم أغنياء من طبقة التجار البورجوازية ، وكانت طبقة رجال القانون مثلة كذلك تمثيلا قويا ، ولم يكن في الجمعية عمال ولا ممثلون للطبقات العاملة على وجه الخصوص . وكان ممثلو الشعب عازمين على وضع دستور سياسي ، وكانت أفكارهم فيما يتعلق به واضحة متميزة . أما المشاكل الاجتماعية فكان حظها من اهتمام الجماعة ضئيلا ، ولم يزد الأمر هنا عن رسم الخطوط العامة . هاتان القوتان ، فقد كانت كل هيئة قوة في ذاتها ، كانتا هيئتين اتضحت شخصية كل منهما وتحددت ملامحها . . وكانت تزاحمهما على السيادة في مضمار الأحداث قوة ثالثة ، قوة لها خطرهما الا أنها تتأبى على كل تحديد . . كانت تدعى أحيانا « الشعب » أو شعب باريس ، وتدعى أخرى « جيش النورة » . فقد أدى انتصار ممثلي الشعب الى اضطراب أداة الحكم في فرنسا ، فلم تكن تجبى الضرائب؛ وفي الريف كانت تشن الغارة بين الفينة والفينة على دار



رجل الكنيسة أو الشريف . وكانت التجارة في كساد ،  
والبطالة تستشري بين الطبقات الدنيا ، فسكانت باريس  
تموج بالعمال ، يعربد الجوع في أحشائهم وقد جاءوا الى  
المدينة ابان الثورة تحرك وجدانهم أفكار العصر في صورة  
مبهمة لا يكادون يفقهون معناها . وكانوا يطلبون الحبز ،  
أول كل شيء يقيمون به أودهم ، ثم بعد ذلك « حياة أفضل »  
وكان ذلك حديث القوم في تلك الايام ، حتى لقد يصدق على  
القوم نعت البعض لهم « ببغاء باريس » . ويشهد التاريخ  
أن هذه الفئة التعسة من البشر قد أمدت رجال الثورة بسلاح  
خطر فعال له قيمته حين يدوى أو يصمت . وانما يعزى  
نجاح الجمعية الحقيقى ، وهى هيئة قوامها من أوساط  
الناس الى تحالفها الخفى مع هذه القوة التى يدرك العقل  
وجودها ولا ترى العين أبعادها .

### قيام الحرس الوطنى :

قرر الملك - ونحن فى الحقيقة لا نكاد نقوى بعد ذلك  
على التفرقة بين الملك والحكومة اذ يصعب بل يستحيل أن  
يتبين المرء حدود سلطة لويس السادس عشر على وجه الدقة  
- نقول ، قرر الملك أن يوجه ضربته ، فأمر بأن تسير فرق  
الجيش الى باريس ، رغم احتجاج الجمعية الوطنية . وفى  
١١ يوليو بدأت المخاوف والريب فى أعقاب خبر بلغ باريس

يقول ان نكر ، معبود الشعب ، قد عزله الملك ، وان هذا العزل لا يبدو أن يكون بداية سوء كثير أضمره صاحب العرش لشعبه الأمين . لم تنتظر باريس حتى يوجه الملك ضربته ، وهي التي خلت من حكومة بالمعنى الحقيقي ، فما هي الا أن بدأ أعضاء لجنة الناخبين التي اختارت وكلاءها في الجمعية العامة في الاجتماع والأخذ في تنظيم حكومة بشكل ما . ثم هي ، أي لجنة الناخبين ، أنشأت الحرس المدني الذي لم يلبث أن غدا الحرس الوطني وقوامه أناس ما بين شرطة وجند الى مواطنين مسلحين للدفاع عن باريس . ولكن ثمة فئة أخرى كانت أكثر أهمية وأطول باعا وأشد مراسا من الحرس الوطني ، كانت تنظم صفوفها هي الأخرى ، وتتألف من رجال الحرس الفرنسي ، وكلهم جند فرنسيون يقيمون في باريس ، قد تشربت نفوسهم روح الثورة الفرنسية ، وهم قد جاهروا الآن بالانضمام الى أهل باريس .

### سقوط الباستيل :

وفي ١٤ يوليو عام ١٧٨٩ ، سارت قوات باريس الصاخبة يقودها ، ان صح القول بأن أحدا كان يقودها ، محام شاب لامع الذهن زلق اللسان يدعى كاميل ديمولين ، تشن هجومها على الباستيل ، لم يكن للقلعة الكبيرة أهمية حربية ما ، فقد كانت حاميتها صغيرة تعوزها المؤن . ولكن اسم « الباستيل » كان في الماضي رمز الطغيان ، وربما عاد ثانية

ليفهر باريس ويردها الى الذل والهوان . فالهجوم الناجح عليها. انما يكون بمثابة تحذير للملكية، وعرض لقوة الشعب، شعب المدينة في وقت واحد . لم يكن للهجوم على القلعة اثر بعيد فيها ، ولكن حاكمها دى لويى de Launay سلم في عصر اليوم ذاته ، اما تحت تأثير انهيار أعصابه أو من جراء فقدده الأمل في عون عاجل يشد أزره . وعده الثوار أول الأمر ألا يمسه مكروه ، ولكن حين سلمت القلعة ، قتل الرجل في فوضى الهرج والمرج انذى سادها اثر التسليم ، تدفق جيش باريس داخل القلعة ، ومضى يدك بنيانها . لم يغير سقوطها الموقف الحربى قليلا أو كثيرا ، وكانت القوات الموالية للملك كبيرة تخلص له الى درجة يمكنه معها القضاء على الثورة الباريسية ، ولكن الملك خضع هنا ثانية فقد كان يتردد على عادته بين جبن ركب في طبيعته ، وانسانية فطرت عليها نفسه . جاء الى باريس ليعبر بشخصه وبلسانه عن موافقته على ما جرى ، وحضر صلاة أقيمت لذلك في كاتدرائية نوتردام .

### الشعب يتحول عن الملك :

واذن فالباستيل في سقوطه لم يكن بعيد الأثر في الموقف الحربى ، ولكنه كان له شأن أى شأن في الناحية السياسية . مرة ثانية انتصر ممثلو الشعب على الملك . .

كان الملك محبوبا أول الأمر من الشعب ، ولكن هذا الحب جعل يتناقص بسرعة ، وتحل محله شيئا فشيئا الريبة والشك وعدم الثقة . ومن ثم فقد ازداد اطمئنان الجمعية الوطنية تحت سقف بيتها الدستوري ، ولعل أهم مما عدها أن باريس ذاتها أصبحت تشعر بأن لها وجودا ، وباتت لها حكومة تسهر على أمرها . وتولى منصب عمدة المدينة فيها عالم فلكي يدعى بايلي ، تقلد منصبه في فورة الشعور الحماسي اذ ذاك ، ونظم الحرس الوطني ، وكان أول رئيس له الماركيز لافاييت المشهور . وبدأت سيطرة باريس ورقابتها على الثورة .

مضت الجمعية التأسيسية ، وذلك هو اسم الجمعية الوطنية من الآن فصاعدا ، في عملها ، في ثقة لا حد لها ، ذلك العمل الذي سنعرض لنتائجه بعد قليل . ولكننا لابد أن نسجل أولا سير الأحداث التي أتمت بعد ثلاثة أشهر العمل الذي بدأه الهجوم على الباستيل ومسقوط معقل الطفيان .

### الموقف في باريس :

لم تتغير في الواقع ملامح الموقف العامة ، فقد كان هناك بلاط خذلته الأحداث ، وبقي يرقب فرصة الأخذ بالثأر وكانت هناك جمعية ترقاب في نوايا الملك وتناصب بلاطه

العداء ، وكان هناك شعب يعاني آلام الفقر والجوع ، أداة طيعة في يد أصحاب المؤامرات • وفي وسط هذه القوى التي تتنازع على السيطرة والسلطان الحقيقي ، لم يكن يمكن القطع بمدى مايفعل الملك ، بل ولا بمدى ما يبعث مثل هذا الفعل عليه من تدبير وتآمر على الملكية • لاجدال أن باريس قد تغيرت ، فصيحة شعبها الآن ترجع صداها أنحاء فرنسا كلها ، ثم أن صحفا كثيرة رأت انور ، وكانت الجريدة السياسية ظاهرة جديدة في فرنسا ، ولها اثر بعيد في حياة الناس ، كما أن الاندية بدأت تتكون ، وتناقش بين جدرانها مسائل الساعة قبل أن تفعل الجمعية ذلك ، وتصوغ الرأي العام الفرنسي • وكان بعض هذه الاندية معتدلا ، وبعضها متطرفا ، ولكن كانت أهمها على الاطلاق الاندية الثورية ، وأبرزها نادي اليعاقبة (١) الذي غدا قوة هائلة تشكل الرأي الثوري الفرنسي ، حتى أنه كان يناهض الجمعية أحيانا ويقلق بالها ، وكان أحيانا أخرى يغلبها على أمرها فتأخذ برأيه • وأدى انتشار البطالة الى فتح المصانع العامة ، وهو اجراء يجمع دائما بين الاستهواء وخيبة الرجاء ، فقد خف

---

(١) اشهر جماعة سياسية زمن الثورة ، سموا باليمقاة لانهم كانوا يجتمعون في دير لليقاقبة في شارع سان أونوريه • قوام الجماعة كتاب وعلماء وبرجوازيون أغنياء • تكونت بعد أحداث ٥ - ٦ أكتوبر سنة ١٧٨٩ التي جاءت بالجمعية الوطنية الى باريس ، فقد تكونت جمعية أصدقاء الدستور ، وعرفت بعدها باسم جماعة اليعاقبة • هدف النسابي و تنوير الشعب وحمايته من الزلل ، معظم الاعضاء يريدون ملكية دستورية .

العاطلون الى باريس زرافات ووحدانا ، يترقون باب العمل الجديد ، وما هي الا أن أصبحوا عبئا ثقيلا على مالية الدولة التى كانت تشكو مر الشكوى من ضيق ذات يدها ، حتى أغلقت المصانع أبوابها فى أوائل شهر اكتوبر ، ولفظ الأمل فى الحياة الكريمة كثيرين الى قارعة الطريق ، ضحية خيبة المسعى .

### هجرة النبلاء وانرها :

ومن أبرز نتائج سقوط الباستيل ، هجرة النبلاء من فرنسا ، فالملك حين خضع وأذعن لم يررض نبلاء كثيرون عن موقفه وكرهوا أن يعيشوا فى فرنسا التى أصبحت تسودها مبادئ بغیضة الى قلوبهم ، فشدوا رحالهم الى ما وراء حدود الوطن ، ينتظرون فرصة الانقضاء ، والعودة الى سابق العيش الرضى .

### العودة الى سابق العيش الرضى :

رحلت طائفة من هؤلاء النبلاء الى انجلترا ، وقصدت فئة أخرى الى ولايات الراين ، وكان أمراء البيت المالک على رأس حركة الهجرة هذه ، واخوة الملك فى طليعتها . وما لبث أن تبعهم كل من كان يرى رأيهم من الإشراف . وفى المدن الألمانية التى عاش فيها هؤلاء ، كانت تجرى تقاليد

فرساي ، فقد غدا المهجر فى حياته قطعة من ارض الوطن ، وكان شغل القوم الشاغل حديث انهيار الثورة عما قريب . وكانت التدريبات العسكرية تجرى على قدم وساق استعدادا لليوم العظيم - يوم العودة . فقد كانوا يقولون ان الملك حين أذعن لمطالب الثوار ، انما اضطر لذلك اضطرارا بحكم حاجته الشديدة للمصال ، ومن ثم فليس فى هذا الاذعان ما يلزمه على أية صورة . وقد فعل نفوذ هؤلاء المهاجرين فعله السيئ حقا ، وكان أثره شرا كله . فقد كان الامل الذى يراود أحلام عقلاء الفرنسيين اذ ذاك ، أن يقوم الوفاق بين الملك وشعبه وأن تكون العلاقة بينهما قائمة على الاحترام والثقة المتبادلة فى وقت واحد ، فلما جاءت حركة الهجرة ، وقويت شوكتها على هذه الصورة ، تعذر تحقيق الامل الكبير وقيل وقتئذ : « ما من شيء كان أشد منها ضررا على الملكية ولا أسوأ منها أثرا فى تطور الثورة » . ويعنى القائل « الهجرة » .

## الفاء الاقطاع :

ونمضى فى الكلام عن سير الثورة فنقول انه لم يكد يرتفع النهار من يوم ٤ أغسطس حتى أعلن وسط مظاهر الحماس الشديد الفاء الاقطاع ، وتكاتفت الطبقات أصحاب الامتيازات ذاتها على الاطاحة بقاعدة وضعها القانونية ، فنزلت عن امتيازاتها الموروثة ، ودعا الاشراف الايدى العاملة

فى ضياعهم الى موائلهم ، يشاركونهم طعاما واحدا وشرابا  
واحدا فلا فرق بين سيد ومسود . لقد كانت حقا لحظات  
نبل نفس انسانية تجسدت فى أبناء الامة الفرنسية جميعا  
غير أنه حين تقرر « الالغاء » بالفعل ، شق على الافهام أن تفقه  
معناه حتى أعلنت الجمعية التشريعية آخر الأمر أن ما يعنيه  
قانون الغاء الاقطاع هو أن ما كان حتى ذلك الحين ملكية  
اقطاعية يصير ملكا حرا . وأن ما يجب أن يبقى حقا لصاحب  
الأرض حتى يعوض عنه ، إنما هو حق ايجار الأرض الذى  
يجرى دفعه الآن على أنه « استحقاق اقتصادى » .

وأيا ما كان فقد صار هذا الالغاء فى واقع الأمر طريقا  
انطلقت الجمعية على طوله ، مطلقة اليد فى إعادة البناء  
السياسى .

ولعل النقاش الدستورى ضرب من النشاط العقلى  
يروق حديثه أكثر من غيره فى الكلام عن تاريخ أوروبا كله  
أو بعضه . . ففلسفة مونتيسكيو وروسو السياسية قد آن  
أو أن ترجمتها الآن الى تشريعات حية ، ولم يكن فى حنايا  
الماضى الفرنسى قبل مونتيسكو وروسو ومن اليهما كثير يمكن  
أن يفيد منه العاملون فى الحقل السياسى . فهم قد تأثروا  
فى حاضرهم الى مدى بعيد بدستور الولايات المتحدة  
الامريكية . ولكن النموذج الحق الخفى فى هذه الناحية ،  
إنما كان الدستور الانجليزى . لم يرتفع صوت واحد ينادى  
بالجمهورية ، ولم يعد الاستبداد العاطف الكريم الذى يترفق



برغبته على نحو ما يرسم صورته حكم فردريك الاكبر فى بروسيا ، لم يعد « موضة » العصر ، وانما كان يرى الناس فى انجلترا المثل العظيم الكبير الوحيد للوفاق بين انظام الملكى والتشريعات الشعبية .

## اعلان حقوق الانسان :

بيد ان حدثا آخر يستوقفنا هنا للحديث عنه قبل المضى فى حديث الثورة . ففي صباح ٢٧ أغسطس عام ١٧٨٩ ، بعد ليلة طال النقاش فيها فى الجمعية واحتدم .. أعلن الماركيز لافاييت بيان « اعلان حقوق الانسان » الذى ينبغى أن يكون قاعدة الدستور كله ، وتقول اول مادة منه :  
- « ولد الانسان حرا ، ويبقى حرا ، متساوى الحقوق مع غيره ، ولا يقوم التمييز الاجتماعى الا على أساس مدى الخدمة العامة » .

ويذكر الاعلان فى اول الامر أن ما دعا أصحابه الى وضعه انما هو اعتقادهم بأن الجهل والنسيان أو ازدراء حقوق الانسان هى وحدها أمس البلاء ومصدر انكبات التى تحل بالشعب وبالبلاد مما يتمثل بعضه فى فسادالحكومات .

ويضيق المقام هنا عن عرض لكل بنود الاعلان والتعليق عليها . ولكننا نعلق عليه بصفة عامة فنقول انه وثيقة لم

توصد أبوابها في وجه النقد البريء . من ذلك أن حاجات فرنسا العملية لم يكن لها نصيب في كل مادار من نقاش واشتد حول حقوق الانسان ، وفضلا عن هذا ، فقد تبين أن بعض المبادئ في صورتها التي صيغت بها في الاعلان ، وأعنى الاعلان في صورته الاولى عام ١٧٨٩ ، لم تكن تبعث على الارتياح عندما جاء دور ترتيب تفصيلات الدستور لعام ١٧٩١ ، على أنه مهما يكن من شيء فلا مناص من الاعتراف بأن « اعلان حقوق الانسان » انما يمثل الجانب النبيل من الثورة ، ذلك الوجه منها الذي بغيره ما كانت تعتبر الثورة حدثا هاما في التاريخ الأوروبي ، على نحو ما هي عليه في اعتبار الجميع الآن . وتحضرني هنا ذكرى المقارنة بينها وبين ثورة انجلترا عام ١٦٨٨ ، تلك المقارنة التي طالما عقدت ولعلها ما برحت تعقد الى يومنا هذا . ففي الثورة الانجليزية ، كان اعلان الحقوق في البرلمان الانجليزي يعبر ببساطة عن حقوق الانسان الانجليزي القانونية والتاريخية ضد العرش ، بينما كان في فرنسا يقوم على أساس مبادئ عامة ، وكانت فرنسا في اعلانها تقوم بدور المناطق بلسان الجنس البشري كله ، ومن ثم فلا يثير غرابة أن تبدو ثورة انجلترا في نظر الناس « مجرد حركة عملية ناجحة » في نطاق ضيق تقصد غاية ما تقصد الى اعطاء كل ذي حق حقه ، وإلى بناء دستورها على هذا الاساس في حين تعتبر الثورة الفرنسية نقطة بداية جديدة لآمال جميع الاجناس والشعوب وجهودها . وحسبنا أن نلمح هنا الى الحقيقة القائلة بأن

وثيقة الاعلان تلك ظلت مدى ربع قرن أو يزيد ميثاق كل  
داعية الى الاصلاح أو الثورة فى أوروبا .

### الملك فى باريس :

وكان ما يجرى فى فرساي اذ ذاك مما يأتيه الملك  
وبلاطه يثير التعليق الغاضب فى باريس ، فقد استدعيت  
الى فرساي فرقة من الفلاندرز ، وهم جنود جلهم غير  
فرنسيين ، وكان مقديها مدعاة الى القول بأن البلاط يعد  
ضربة قادمة يوجهها الى باريس . وفى نفس الوقت كانت  
الرغبة من الناحية الأخرى فى أن يقيم الملك فى باريس ،  
وهى رغبة أخذت تؤيدها الصحافة الفرنسية وتلح فى  
تنفيذها ، طنا من جانبها بأن الوقت قد حان لتحقيقها ،  
وكانت هذه الرغبة قد ابداهها الكثيرون من المسئولين غير  
الرسميين . وفى ٥ اكتوبر عام ١٧٨٩ تجمهرت فئة من  
الناس تطلب الخبز . وتوجهت الى فرساي ، تضع طلبها  
بين يدي ملك البلاد وبلاطه .

وصلت الجماعة الثائرة الى قصر الملك عصر اليوم ،  
ولحق بها هناك لافاييت يقود حرسه الوطنى . انقضى مغرب  
اليوم فى التماس وتضرع وتظاهر لا ينطوى شئ منه على  
خطر ، فلما انتصف الليل ، اخترقت الغوغاء القصر ، وكاد  
الملك وزوجه أن يلقيا شرا كثيرا ، لولا أن لافاييت كان قد

جاء بطلب ، هو دعوة الملك للإقامة في باريس ، ولم ير الملك  
بدأ من الاذعان للرغبة الشعبية ، فغادر فرساي عصر يوم  
٦ من أكتوبر ، غادر القصر الذي يقترن بالملكية في كثير ، الى  
قصر التويلرى في العاصمة الفرنسية ، وكان هذا قصر  
ملوك فرنسا في القرون الوسطى . وتبعته الجمعية الى هناك  
ومنذ ذلك اليوم صارت باريس مقر الحكومة ومركز ادارة  
البلاد ، تحمل طابع العاصمة في كل تصرفاتها .

### مصر الملكية :

وفي الجمعية التأسيسية ، جرت مناقشات حامية حول  
وضع الملكية في فرنسا ، أعلن لويس السادس عشر في  
ختامها « ملك الفرنسيين بنعمة الله ومشيتة الأمة » . وفي  
تحديد سلطاته ، تأثرت الجمعية بنظرية مونتسكيو في فصل  
السلطات ، فكل من السلطات التنفيذية والتشريعية  
والقضائية ، ينبغي أن تبقى منفصلة عن الأخرى ، والملك هو  
رئيس السلطة التنفيذية ، وله حق تعيين كبار ضباط الجيش  
ورجال الوزارة . ولكن وفقا للنظرية سالفة الذكر ، وحتى  
يطمئن قلب الشعب من خيفة يتوجسها من ملكه في ظل  
أحداث الماضي القريب ، رفضت الجمعية أن تحذو حذو  
النظام الانجليزي ، الذي يقضى بأن يكون للوزراء مكان في  
المجلس التشريعي ، ذلك المجلس الذي يعتمدون على تعضيده  
في الموافقة على ما يصدر عنهم من أعمال بوصفهم وزراء . ومن

ثم فقد نشأت ثغرة لا تسد بين ممثلي الشعب ووزراء الملك .  
فان كان ثمة افتراق بينهما فى المقصد ، فالسبيل الوحيد  
الى الانسجام بينهما ، انما هو الاتهام أو اثورة . وقد  
اشتدت مناقشة ميرابو لهذه النقطة بالذات ، ولكن جهاده  
من اجل الأخذ بوجهة النظر الانجليزية ، ذهب أدراج الرياح  
ولم يكن أسعد حظا حين أراد أن يحتفظ للملك بحق الفيتو  
حيال أى تسريع ، فقد كان كل ما ناله الملك فى هذا الشأن  
حق فيتو يعطل ولا يبطل نهائيا ، بمعنى أنه كان لا يملك  
أكثر من أن يؤخر الأخذ باجراء ما أثناء دورة انعقاد واحدة  
. . على أن لويس كان ينحدر من أصلاّب أعنى ملوك أوربا ،  
فكان كل ما تنفضه له يد الشعب من فضلها ، لا يزيد عن  
أن يكون صورة من صور الاذلال والامتهان فى نظره . لقد  
أمكنت التسوية الثورية فى انجلترا عن طريق استبدال  
أسرة حاكمة بأسرة حاكمة أخرى ، وكان بين أعضاء الجمعية  
من ينادى باحتذاء المثل الانجليزى هنا أيضا ، فيجرى نقل  
التاج من رأس البربون الى آل بيت أورليانز الذى اعتنق  
سليبه الدوق فيليب مبادئ الثورة وأبدى اهتمامه بها فى  
صورة حماسية منقطعة النظير .

### التشريعات الاولى :

وقد رئى الى ما تقدم أن يعهد بالسلطة التشريعية الى  
مجلس واحد يبلغ عدد أعضائه ٧٤٥ عضوا ، ولم ير انشاء  
مجلس ثان خشية أن يلوذ بحماة أعضاء الطبقة الارستقراطية

فى الماضى ، او يحنو سقفه على مولد جيل جديد منها ، وما كانت فرنسا لتريد فى حالتها الحاضرة ارسنقراطية ما . . كذلك أعيد تنظيم الجهاز القضائى ، فكان القضاء ينتخبون ، وألغى نظام التعذيب وأدخل نظام المحلفين . . وزال بحرة قلم نظام الادارة المحلية فى الاقاليم ، فغابت من الوجود مقاطعات فرنسا التاريخية منذ قديم . بريتانيا ونورماندى وبروفنس وغيرها ، وكلها أسماء لا تقل خطرا فى التاريخ الفرنسى عن مقاطعات يوركشير ولانكشير وكورنول وغيرها فى التاريخ الانجليزى على سبيل المثال . فقد حل محلها ثلاثة وثمانون قسما يدعى كل قسم باسم بعض قسما وجهه المحلية التى لا تسمى الى تقليد قديم ، أو تلتصق بها ولو بقية من عاطفة تذيب جذورها فى تربة الماضى .

وواضح أن الغرض من هذا التقسيم الجديد ، إنما هو القضاء على كل ما من شأنه أن يعود بالتفكير الفرنسى أو الشعور الفرنسى الى ما كانت عليه الأوضاع زمن الثورة وما قبلها ، تلك الأوضاع التى كانت تقف حجر عثرة فى طريق الوحدة القومية التى كانت الثورة تصر على تحقيقها ، والتى تجلت فى الشعار الكبير القائل : « الجمهورية وحدة لا تتجزأ » .

### الكنيسة والدولة :

وأخيرا فعلينا أن ننظر الى سياسة الجمعية التأسيسية فى ناحية الدين . كانت المشكلة الدينية تثير المشاعر

والاحساسات العنيفة ، فقد كانت الحركة ان فكرية توجه ضرباتها التي لا تتوقف الى سلطان الكنيسة في فرنسا ، ولا ينسى أحد فولتير هنا . وجاءت مع الثورة نظرتان الى الدين ، كان الاضطهاد قد واراها حيناً عن الابصار ، الا انهما لم تلبثا ان عادتا في ضوء النهار : كان بين أعضاء الجمعية كثرة بروتستانية ، وهي طائفة لم تنس الظلم والقسوة اللذين انطوى عليهما سحب قرار نانت (١) التاريخي وكان أتباع جانسن ، ويمثلون طائفة النظاميين (٢) في الكنيسة الفرنسية ممثلين كذلك في الجمعية تمثيلاً طيباً ، وكانت تحرق قلوبهم لهفة على تسوية الدين القديم مع الكنيسة والملكية اللتين اضطهدتاها ردحا طويلاً . وكان الاتحاد الصادق بين الملكية والكنيسة الذي بدأ في القرن السادس عشر ، يشكل الآن خطراً على الكنيسة أي خطر ، فالآن ، وقد غابت شمس الملكية المطلقة ، لم يكن بد من أن ينال الكنيسة أذى . وما هي الا أن أصابت التشريعات الجديدة أملاك الكنيسة فاعتبرت «الأعشار» جزءاً من الاقطاع ومن ثم فقد ألغيت مع غيرها مما كان يفرضه الاقطاع على الناس ، كما بدت موارد الكنيسة الضخمة بوسعها أن تحل

(١) أصدره هنري الرابع ملك فرنسا في ابريل عام ١٢٩٨ ويسمح لطائفة الهيجونوت بممارسة عقيدتهم شأن طوائف النصرانية الأخرى .

(٢) أي Methodists وقد انشأ الطائفة في إنجلترا القس جون ويزلي عام ١٧٠٣ ، ومعناها أصحاب الطريق ، وهم قوم متزهدون يلتزمون العرفية في كل شئون الدين .

مشكلة البلاد المالية ، فقام تاليران ، أسقف أوتان ، بحركته  
البارعة التي استهل بها حياة السياسية الالعة ، فاقترح  
نقل ثروة الكنيسة الى خزانة الدولة ، وأن تقوم الدولة  
بالتزامات الكنيسة ودفع مرتبات رجالها ، وتقرر الأخذ  
برأيه .

احتج الكثيرون على هذا الاجراء احتجاجا شديدا ،  
ولكن على غير طائل . ورأى الناس الجمعية بعدها تستدير  
فتطلب من الحكومة تنظيم الكنيسة من جديد ، تلك الكنيسة  
التي أصبحت الدولة تدفع مرتباتها . وتأن لها ما أرادت  
أنغيث الأبرشيات الاولى ، وحلت محلها أبرشيات أخرى  
تنفق والتقسيم الإداري الجديد ( أى تقسيم رقعة البلاد الى  
ثلاثة وثمانين قسما محليا ) ، وأعيد ترتيب مرتبات  
انقساوسة فانخفض مرتب الأساقفة عن ذي قبل ، بينما زاد  
مرتب صغار القسس عما كان . وأخطر من ذلك أن تقرر  
تعيين الأساقفة والقساوسة بالانتخاب الذي هو حق مطلق  
لكل مواطن بغض النظر عن عقيدته الدينية . وقد أثار هذا  
الاجراء ضجة كبرى ومعارضة شديدة ، الا أن أصحابه  
دافعوا عنه بقولهم انه لا يعدو أن يكون رجعة الى العادة  
البداية . ولما عرض الأمر على البابا لأبداء الرأي فيه ،  
والموافقة عليه ، رفض كل ما قدم اليه ، وهدد بالطرد من  
رحمة الكنيسة كل من يلتزم به على نحو من الأنحاء . ولكن  
الجمعية لم تحفل ، ولم ترتد عن موقفها رغم تهديد عاهل  
الكنيسة الأكبر ، وراحت ترد على رفضه بطلبها الى رجال



الكنيسة أن يحلفوا يمين الولاء « للملك والقانون والامة » .  
عندئذ انقسمت الكنيسة فريقين - فريق قبل أداء اليمين ،  
وفريق لم يقبل ، وقامت الدولة فى مبدأ الأمر بمنح معاش  
لكل قس تخرج من القسم .

على أنه يبرز من بين نتائج هذا التشريع الكنسى نتيجتان  
سيئتان للغاية - أولاهما هى استقطاب المشاعر حيال الثورة  
على نحو لم يسبق له مثيل . فالنبلاء الذين هاجروا أعلنوا  
الحرب عليها ، بالفعل ، وإن لم تأت حركتهم المضادة بغير  
نتيجة واحدة - هى ازدياد تماسك القوى الشعبية ،  
وثانيتهما أن الملك المتدين الذى قبل الثورة فى مبدأ الأمر  
فى تردد كثير ، وجد نفسه الآن يغلو فى معارضته لها ، فهو  
إن كان ، قد وقع على القوانين ، فحتى لا تهب عليه ريح  
الاحتجاج العاتية لا أكثر ولا أقل ، ولكن عدم موافقة البابا  
الآن قد بعث الاستياء فى نفسه كثيرا ، حتى أننا نراه يكتب  
بعدها بقليل يقول : « ليغفر الله لى أن وقعت باسمى رغم  
ارادتى ، أجيز قوانين تتعارض مع نظام الكنيسة الكاثوليكية  
وعقيدتها » . على أننا إذا أردنا أن نصور حقيقة هذا الأمر  
لم نملك الا أن نقول ان هذا الاجراء الدينى بذر بذور الخلف  
والفرقة فى تربة الامة الفرنسية قاطبة ، وما لبث أن دعا  
الى الحرب الاهلية قبل فوات وقت طويل .

## فرار الملك :

وكان التشريع الكنسى سالف الذكر أحد الأسباب الرئيسية التى دفعت بالملك الى الفرار من باريس ، ففي يوم عيد الفصح من عام ١٧٩٢ ، حاول لويس الذهاب الى قصر سان كلو الذى يبعد ستة أميال عن باريس ، حتى يتخفف من اجراءات الكنيسة الجديدة فى ظل الدستور الجديد . . ولكن شاء نكد طالعه أن يعترض طريقه جمهور يرتاب فى أمره ، واذا لافاييت نفسه يخفق فى أن يفسح الطريق أمام سيده الى قصره . ووضح أن الملك لا يريد أن يكون سجين قصر التويلرى ، وكانت الصحافة الفرنسية كلها تضرب على وتر واحد نمت نغمته عن عداوة تزداد وريبة تعمق . وساء الموقف أكثر عندما جعل النبلاء يرددون القول بقرب عودتهم الى وطنهم وتحرير الملك الأسير المسكين ، فقد كان هذا الترديد فى ذاته يشكل مصدر خطر شديد على شخص الملك وحياته ، ذلك الملك الذى كان يفكر دائما فى الرحلة بعيدا عن باريس ، وفى أن يعيد النظر فى الدستور . وقد كانت هذه هى النصيحة التى أبداها الماركيز ميرابو قبل موته فى أبريل عام ١٧٩١ - « ان الملك لابد أن يجسر ويذهب الى روان ، ويدعو الجمعية لتلحق به هناك ، ثم يجرى تعديلات هامة فى الدستور ، ولكن عليه أن يفعل هذا كله على نحو لا يثير الشك فى ولائه للثورة أو مبادئها الرئيسية » . . ولكن الملك والمملكة لم يكونا يثقان بميرابو ، فقد كانا يريان فيه رجل علم اختار جانب الملكية من أجل أغراض ذاتية . .

وذهب موت الرجل الحكيم بالامل فى آخر خطوة لتنفيذ  
الفكرة . بيد أن الملك جعل يزداد ميله الى الفرار من قيد  
باريس ، ورسم خطة لذلك مؤداها أن يتصل بالجنرال بوييه  
قائد الجيش الفرنسى فى الجبهة الشمالية الشرقية ، وأن  
يملى فى ظل السلاح التغييرات التى يرى اجراءها فى  
الدستور ، وأولها ، ولاجدال ، وقف بل الغاء التشريع الكنسى  
ومنح مزيد من السلطة الحقيقية لطبقة النبلاء ، وان دعا  
الأمر الى أن يلجأ الى قوى أوروبا الكبرى .

كادت هذه الخطة تكفل بالنجاح . فقد فر الملك مع  
زوجه وأولاده ، يرتدى زى مربية لصغاره ، من قصر التويلرى  
دون أن يراه أحد ، ثم حملته عربية خارج المدينة ، بلغت به  
فان ، وهى مدينة صغيرة على نهر الميز ، ولو أنه بلغ الضفة  
الأخرى ، لكتبت له السلامة ولذويه ، ولكن القدر كان له  
بالمرصاد ، فقد افتضح أمره ، وقبض عليه صاحب حانة فى  
قرية قريبة قابعة فى جوار فان .

ساد الذعر بباريس ، فقد وقع القوم على رسالة بخط  
يده تركها فى العاصمة قبل رحيله الخفى عنها ، يؤكد فيها  
رفضه الدستور ، وكان يزيد من هذا الذعر ما بدأ يلوح فى  
الأفق من شبح الحرب الخارجية ، غير أن هذه المخاوف كلها

لم يلبث أن خفف وقعها على قلوب الأهليين نبأ القبض على الملك ، وإن أثار موقفه الآن مشاكل صعبة للغاية . فكيف يكون التصرف حيال ملك هارب ؟ لقد نجح من قبل جيمس الثاني على ضفة المانش الأخرى فى الفرار بحياته . وود البعض الآن ، لو كانت لهذا التمس فرصة ، وقال آخرون بتغيير العائلة المالكة والاعتراف بدوق أورليانز ملكا على البلاد ، ولكن أغلبية الجمعية أصرت على عودة الملك الى باريس وإيقافه عن مباشرة عمله حتى تفرغ من وضع الدستور ، فتعرضه عليه للموافقة عليه ، فإن قبله عاد ملكا ثانية ، وإن رفضه ، فقد العرش ، وبدأت مواجهة مشكلة من يحل محله . كان هذا هو قرار الجمعية ، وأنه لموقف كريم حقا من جانب ممثلى الأمة . ولكن كانت ترتفع فى أروقة الجمعية أصوات قلة ترجع صداها « ببغاء باريس » معلنة مؤازرتها بلا قيد ولا شرط ، تنادى بعزل الملك وإعلان الجمهورية . . . لم تكن فكرة الجمهورية قد نبتت قبل الآن فى تربة الشعور القومى فى فرنسا ، ولكن الموقف الآن غيره فيما قبل . . . وحدثت قلاقل واضطرابات فقدت خلالها بعض الأرواح يوم ١٧ بوليو ، وتعرف فى التاريخ الفرنسى بحوادث قتل « شان دى مارس » . وكانت هذه بداية الحركة التى جعلت من فرنسا جمهورية فى مدى عام أو أقل قليلا ، وكان بايلى رئيس الحرس الوطنى الذى أصدر أمره بإطلاق النار ، قاصدا تفريق المتجمهرين لا إصابة بنى جلدته ، موضح سخط الناس جميعا .

## الملك يقبل الدستور :

وفي شهر سبتمبر عام ١٧٩١ ، تم وضع الدستور ، وقبله الملك ، وبدأ أن الثورة قد استنفدت أغراضها فلم يعد لها من وجود ، فقد اعتمد الملك دستورا يماثل دستور انجلترا ، ولم يكلف الأمر عناء كبيرا أو أرواحا كثيرة ، وظنت كثرة من المراقبين السياسيين الأجانب أن فرنسا قد ودعت ليل محنتها ، ولن تلبث أن تتنفس مع الصبح نسمة السلام مرة أخرى في ظل حياة دستورية طيبة .



## الثورة الفرنسية ... حمراء

« المجنأ قساة دائما »

( جيون . . انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها )

لعل لا أجاوز حدود الحقيقة حين أقول انه يكاد يستحيل علينا فهم الثورة الفرنسية اذا نحن نظرنا اليها وقد غابت عن أنظارنا وجوها الداخلية وتطوراتها . فنحن كلما أمعنا النظر في هذه التطورات ، اتضح لنا معالم طورها الأخير كله ، وهو الطور الذي نشبت فيه الحرب بين فرنسا والدول الأوروبية لتتصل مدى ثلاثة وعشرين عاما ، لم تنعم فيها فرنسا بلحظة من سلام . وفي عرضنا لأسباب الحرب تلك والخطوات التي دخلت بها أرض فرنسا ، لابد أن ننظر أولا في حالة البلاد وقت نشوب الحرب .

الجمعية التشريعية واحزابها :

جاءت الجمعية التشريعية الى الدنيا في خريف ١٧٩١ . ولم تكن تضم أحدا من أعضاء الجمعية التأسيسية ، قالت

أقدار الفرنسيين الى أيدي جماعة لم تتبلور بعد شخصيتها الاجتماعية في نظر الناس أو تستبين صلاتها الحزبية . ومن ثم فقد كان أثرها ضعيفا ، وكان صاحب الأثر الحقيقي على مجريات الأحداث انما هي الصحافة الفرنسية والاندية السياسية لا مقاعد الجمعية التشريعية .

وكان كثير من أعضاء هذه الجمعية لا ينتمون الى حزب بعينه ، ولكن شيئا بعينها قد تجددت قسما وجوهها تحت سقف الجمعية : حزب اليمين أو المحافظين في البرلمان . . ويعرفون باسم الفويان ويمثلون في الداخل آراء لافاييت في الخارج . وكانت هذه الطائفة أعظم الأحزاب القائمة شأنًا ، الا أنها لم تلبث أن تخطتها في سباق النفوذ والسلطان أحزاب أخرى ، فاليساريون أو الراديكاليون في البرلمان انقسموا فريقين بعد حين : الفريق الأول وهو فريق الجيروندي ، وهو اسم الجهة التي وفدوا منها ، وأغلب هذا الفريق شباب يافع يتدفق قوة وحماسة ، وذلاقة لسان . وهم وان قبلوا القول بالملكية اذ ذاك ، الا أن مثلهم الأعلى كان الجمهورية ، وكان مصدر قوتهم الرئيسي خارج باريس - وأعني - الأقاليم والريف ، ثم هم اتخذوا بعد ذلك صفة ممثلي الطبقات المتوسطة ، وان شابت النظرة اليهم أول الأمر شائبة من خوف من فرط خطرهم الثوري . . وكان قادتهم الكبار أربعة هم : بريسو ، وبوزو ، وفينيو ، ورولان ، وكانت زوجة هذا الأخير بعيدة الأثر في أعمال الحزب ومجالسه ، حتى أنها لفتت النظر أكثر من أي



آخر بقوة شخصيتها ، ولم يكن اليعاقبة ، أهل الفريق الآخر يتميزون ، أول أمرهم ، عن الجيرونديين ، ولقد رأينا من قبل النادى الذى حمل الحزب اسمه ، وكان حزبا أشد قوة وبأسا فى باريس منه فى برلمان الأمة ، وكان يشكل قيادته مثلث عظيم أطرافه روبسبير ومارا ودانتون ، وثلاثتهم أكبر قوى سياسية بعيدة الأثر فى العاصمة الفرنسية .

### وزارة الملك الأولى :

كان من حق الملك تعيين الوزارة دون الرجوع الى البرلمان والاحاطة برغباته . اختار الملك وزارته الأولى من حزب المحافظين ، فلم يلبث أن نشأ احتكاك بينه وبين الجمعية . . كان فرار الملك قد أفقده حب رعيته الأولى ، وكانت شخصيته الآن ترتقى اليها الريب وتزايها ثقة الشعب ، فكان كل ما يأتية يساء تفسيره ، وحين رفض قبول قانون يقضى بالحكم بالاعدام على كافة النبلاء والمهاجرين الذين لم يعودوا الى البلاد قبل شهر يناير عام ١٧٩٢ ، وحين أبى أن يوافق على قانون ينطوى على تعسف شديد حيال القساوسة الذين رفضوا حلف اليمين الدستورية ، أفضت النظرة اليه فى ضوء هذا كله الى اعتباره عدوا للثورة . وقوى الاحتجاج على أعماله الى درجة أن اقتضاء العقل اقالة حكومة المحافظين وتعيين أخرى من بين صفوف الجيرونديين .

## وزارة جديدة :

تقلد رولان منصب وزير الداخلية فى الوزارة الجديدة التى كان أهم شخصياتها ديمورييه ، وزير الخارجية . . وكان هذا أقل الناس صلة بحزب الجيرونديين . ولما كان للشئون الخارجية خطرها فى حياة فرنسا فى تلك الفترة من تاريخها ، فلا بد أن نولى وجوها شطرها ، لنرى كيف أقحمت فرنسا فى حرب خارجية عادت على البلاد بغير قليل من خير وشر .

## الحرب الخارجية :

كانت الحرب منذ البداية موضوع النقاش الأول فى نزاع أطراف الجمعية المختلفة . كان البعض يرى أن الحرب ترتد أساسا إلى أطماع الثورة وعواطفها ؛ ونسب آخرون نشوبها إلى الغيرة والخوف من جانب القوى الكبرى . حقيقة كان الموقف الدولى فى أوروبا وقتئذ ينطوى على عناصر خطر كبيرة ، ولكن لم يكن شئ منه يدعو أو يؤمى إلى ضرورة الاشتباك فى حرب مع فرنسا ؛ فى حين أن فرنسا ذاتها وهى تضع دستورها قد قرّرت قرارها على عدم الدخول فى حرب إلا من أجل الدفاع عن أرض الوطن . وبدأت بريطانيا بادئ الأمر تعزف عن تجديد الصراع الطويل مع جارتها الكبيرة ، فرنسا . وفى أوائل الثورة ،

كان الشعور العام فى انجلترا شعور من يشاطر آخر حاله ويمطف عليه . حقا ارتفعت فى انجلترا أصوات تحذر من شر مستطير . كصوت ادموند بيرك مما يفصل القول فيه فصل الكتاب الأخير ، وتعلن أن الثورة الفرنسية شيء يغاير تماما الثورة الانجليزية عام ١٦٨٨ ، وأنها ، أى الثورة الفرنسية ، بما تعتنقه عقيدة وتضربه مثلا تهدد النظام القائم فى أوربا . بيد أن هذه الصرخات الداوية كان ينازعها أسمع الانجليز أصوات أخرى تعدلها قوة ، تجلت فى حماسة الشعراء وارتياح الساسة ، فكان يعم جو الادب وغيره أصداء قضائد الشعارين الكبارين وردزورث وكوليردج الحماسية الرائعة ، ترسم صورة آمال المستقبل الكبار ابان اندلاع نار الثورة ؛ ويعلق الى يومنا هذا بعض هذا الفيض الشعرى بذواكر الكثيرين ، ومنه قول وردزورث : « ان النفس لتغتبط بحياتها فى ذلك الفجر » . وقوله فى مكان آخر : « ان من أسباب السعادة الحقة أن يكون المرء شابا » . وكانت الحكومة الانجليزية فى شغل شاغل عن الثورة وأحداثها ؛ فقد كانت تخدم فتنة تمزق هولندا تهدف الى الاطاحة بملكها . وكانت الحركة تضم عناصر ثورية ، تحالف حاكم هولندا مع بريطانيا وبروسيا ؛ ولما أخذت الثورة الهولندية ، أخذ الناس لا يعلقون أهمية كبيرة على ماقد تشكله فرنسا الشائرة من خطر على أنظمة الحكم الأوروبية .

أما الامبراطورية النمساوية فكانت تشكل نظاما ضعيفا يتهاوى مع الزمن ؛ ولم تكن قوتها في الامبراطورية نفسها ، وانما في بعض ولايات منها ، وفي ولايتي بروسيا والنمسا على وجه التحديد . وكانت هاتان الولايتان الأخيرتان عدوتين منذ قديم ، تغرى البغضاء كلا منهما بالقضاء على الأخرى . وكانت ذكرى حرب السنوات السبع لم تخف مرارتها في القلوب ، وخاصة في فينا ، ثم ان النمسا ذاتها كان لها من مشاغلها الكثيرة مالا يهين . لها فرصة فراغ تفكر فيها في القضاء على حركة الثورة في فرنسا . وكانت بلجيكا تشكو هي الأخرى ، وكانت المجر تقف على أبواب ثورة .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فقد كانت الدول التي تتاخم حدودها حدود الامبراطورية لا يستقر الحال فيها في صورة أو أخرى ، فبولندا مثلا كانت مسرح أحداث لا تقل خطورتها الدولية عن خطورة الموقف الفرنسي . حتى أن محاولة الدول الكبرى في أوربا الانقضاض عليها وضم بعض أراضيها لها لم تكن تعنى أكثر من أحداث اضطراب شديد في ميزان القوى الدولي .

لهذه الأسباب مجتمعة ، جعلت دول أوربا ترقب بعضها بعضا تجاه الحركة الفرنسية دون أن تجرؤ على خطوة عملية واحدة ضد فرنسا . ولا حاجة بعد هذا الى القول بأن هذا الاضطراب كان سببا من أسباب الانتصار العجيب الذي أحرزته الثورة ضد التحالف الأوربي .

## أسباب الحرب :

كانت العلاقات بين فرنسا والامبراطورية تسير فى طريق وعر منذ أمد غير قريب . فالقرارات الفرنسية التى بدت فى أول الامر داخلية فى طابعها لم تلبث أن تركت آثارها فى العلاقات الخارجية . فإلغاء الاقطاع مثلا قد ذهب بالحقوق الاقطاعية التى كان يتمتع بها رعايا ألمان لهم أراضى فى داخل الحدود الفرنسية ، وحرم التشريع الكنسى أساقفة كولون ومينز من الأعشار التى كانوا يتقاضونها من رعاياهم الفرنسيين . واذن فلم يكن فكاك من الاحتكاك بين الامبراطورية الألمانية وفرنسا التى كانت هى الأخرى لها ما تشكوه من جاريتها الكبيرة . ألم تفر كثرة من النبلاء الفرنسيين الى الأرض الألمانية بعد قرارات الثورة التى سلفت الإشارة إليها فى أكتوبر عام ١٧٨٩ ؟ ألم يزد الأمر عن مجرد «الهجرة» من الوطن ، فكان يجرى الاستعداد لاسترداد الأرض من غاصبيها فيما ظن النبلاء ؟ ألم يكن يقوم بلاط فرنسى فوق الأرض الألمانية ، ويجرى تدريب الجنود وغير ذلك مما لا يبشر بخير حيال الثورة !!

وننتقل الى نطاق احتكاك آخر . أدى فرار لويس من باريس الى اعادته واذلاله على نحو ما عرفنا ؛ ولم يكن بوسع ليوبولد ، امبراطور النمسا والمجر أن ينظر الى هذا كله دون أن يعتريه قلق شديد ؛ لا لأن الملكة ماري اخته فحسب ، وانما لأمر تتعلق بالنظام فى ذاته . بيد أنه مع

ذلك لم تكن تستبد به الرغبة فى التدخل المسلح فى شئون فرنسا ، وانما جعل يسعى الى اجراء سياسى يكفل انقاذ الملك والمملكة مما كان يكتنف حياتهما من شر وبلاء .  
لجأ الى ملك بروسيا فردريك ، واجتمع المكان قرب درسدن على نهر الألب ، وبعد تسوية بعض الخلافات بين بلديهما ، أعلننا بيانا مشتركا يؤكد ضمان سلامة أصحاب العرش الفرنسى ؛ غير أن هذا الاعلان لم يكن له من أثر الا زيادة كراهية الشعب تجاه لويس .

هذه هى صورة الموقف الخارجى فى محيط علاقات فرنسا الدولية ، حين جاءت وزارة الجيرونديين التى كانت ترى بالاجماع الدخول فى حرب خارجية ، وكان رأى مدام رولان أن الحرب هى السبيل الوحيد الذى يستطيع أن يرتفع بالشعور الفرنسى الى درجة أن يرى أصحابه ضرورة الأخذ بالنظام الجمهورى فى حكم البلاد وكان وزير الخارجية يحلم بحلف دبلوماسى يعطى فرنسا فرصة النجاح ، فكان يأمل فى تعضيد بروسيا وانجلترا ، بل ذهب الى حد أن كانت تراوده فكرة عمل الجيوش الفرنسية تحت امرة برونسويك البروسى حتى يقوده الى النصر وفق الاستراتيجية البروسية زمن فردريك الأكبر . وبينما تتعثر المفاوضات التى كانت تجرى مع النمسا حول أسباب الاحتكاك سالفة الذكر ، كانت العواطف الفرنسية تلتهب حتى سادت نزعة خالصة الى الحرب ، تلك النزعة التى صرح بحقيقتها جهارا اليعاقبة المتطرفون أمثال

مارا ودانتون روبسبير . ويدعو ذكر هذا الاخير الى أن نقف هنا قليلا ، لنقول انه رغم مساييرته نزعة الحرب السائدة ، لم يكن ، أى روبسبير يريد الحرب بحال ، ولعل الثورة الفرنسية فى طريقها الطويل لم تعرف بيانا حكيما عاقلا مثل البيان الذى لقااه الرجل يقيم الحجة على سلامة القول بعدم دخول فرنسا فى حرب ، أية حرب ، اذ أن أثرها السيئ قد يرتد على الثورة وأصحابها .

ولكن كلمات روبسبير لم تلق آذانا صاغية ، حتى الملكيون انفسهم كانوا يرون الحرب ويريدونها ، فقد كانوا يؤمنون بأن الحرب من شأنها تقوية الهيئة التنفيذية ؛ وهذا من شأنه بدوره تقوية جبهة الملكية واعادة سلطان الملك ونفوذه الى ماكان عليه قبلا . من هنا ساد التوتر جو المفاوضات بين فرنسا والنمسا ، وساء الموقف أكثر فأكثر حين مات ليوبولد فى مارس عام ١٧٩٢ ؛ وخلفه فرنسيس الثانى الذى لم تكن له خبرة سابقة ولا حسن تدبيره ، رفضت النمسا طلبات فرنسا التى تعلق بعضها بنشاط الأمراء الفرنسيين فى الارض الألمانية ؛ وفى ٢٠ أبريل من عام ١٧٩٢ ، وفقا لقواعد الدستور الجديد ، نزل لويس السادس عشر الى مقر الجمعية ، والدمع يترقرق فى عينيه ، ليعلن الحرب على فرنسيس ، لا بوصفه امبراطورا ، وانما باعتباره ملك المجر وبوهيميا .

## الحرب ونتائجها :

تبخرت أحلام ديمسورييه وآماله فى الأحلاف ، فلا بريطانيا شدت أزره فقد وقفت بمنأى عن مسرح الأحداث ، ترقب سير الامور ؛ ولا بروسيا أمدته بتكتيك حربى لا يشق له غبار ، فقد انضمت الى جانب النمسا . كان الفرنسيون قد انتووا الهجوم على ولايات الامبراطورية فى الأراضى الواطئة ، طنا منهم بأنهم ملاقون ترحيبا من العناصر الثورية فيها ؛ وعونا يؤمن لهم نصرا سريعا سهلا . ولكن الرياح جاءت بما لم تشته السفن ، فقد فشلت الحملة الأولى فى تاريخ الثورة فشلا ذريعا ، أدى اليه سوء النظام وسوء التدريب وسوء التخطيط وعدم ولاء كثيرين من الضباط للثورة . اعترفت الثورة بهذا الفشل والمرارة ملء قلبها . وكان للفشل أثره المباشر فى باريس ، فقد ظن الناس بالملك ووزرائه الظنون ، اذ اخترقت مظاهرة مسلحة قصر التويلرى ، وبلغت الى حيث الملك والملكة ؛ ولم ترفع يدهم عن القصر حتى جاء الحرس الوطنى . ان الحدث فى ذاته لا أهمية كبيرة له ؛ ولكنه يلمح الى الأسباب التى دعت الى الاطاحة بالملكية ، بل والى حكم الارهاب . لقد كانت هناك جبهة خارجية ؛ وكان الفشل نصيب العاملين فيها ، فلم يكن يجافى الواقع أن يشعر الناس بأن أول شرط ضرورى للنجاح انما يتمثل فى الطاقة و ارادة النصر فى رأس الدولة .



واعنقد القوم بأن الملك خائر القوى ، خائن القلب ؛ أو هو  
يترنح بين الحور والحيانة . وبدا أنه من الضروري أن  
تفرض عليه سياسة أكثر فاعلية ؛ فإن لم يفلح فى إدارة  
البلاد بها ، تخلى عن الحكم .

### موقف اليعاقبة من الملك :

فشلت الجمعية ، ولما تبلغ من عمرها عامين فى ضبط  
الأمور والسيطرة على الموقف . فلم يكن قادة الشعب من  
أعضائها ، ثم هى كانت برقب سير الأحداث فى لهفه  
خلت من القدرة على فعل شيء . وكان الشعور السائد  
بين مختلف طبقات الشعب محافظا على وجه العموم .  
فلم يروا أن يسيروا فى طريق من شأنه الاطاحة بالعرش .  
واذن فالقضاء على الملكية وسلطانها لم يكن ليأتى من جانب  
الجمعية ، ولا من ناحية الأغلبية الشعبية ؛ وإنما كان  
لابد أن يأتى من ناحية الأقلية التى عقدت عزمها على  
ما تفعل . وكانت هذه الأقلية قائمة بالفعل بين صفوف  
اليعاقبة ، فهم قوم اختلفت أصولهم وتباينت طبقاتهم ،  
فكان قليل منهم ينتمون الى الطبقات العاملة ، ثم انهم أى  
اليعاقبة ، كانوا على خلاف فى رأى فيما بينهم تجاه  
مسائل لا تدخل فى حصر ؛ ذلك الخلاف الذى أفضى الى  
نزاع بين أعضاء الجماعة ، اختلفت صورته أشكالا

والوفا ، الا أن شيئا واحدا كان يؤلف بين قلوبهم فيجمع كلمتهم - ذلك هو مبدأ الولاء للثورة وحب فرنسا ، فقد كان الخطر الناجم من الحرب الناشئة وما ترتب عليها من تهديد لمبادئ الثورة ، قد حدا بهم الى التفكير فى القضاء على الملكية وتولى زمام الأمور فى البلاد وذلك حدبا على مصالح الثورة وحفاظا عليها . لقد سادت الثورة الا الآن طبقة البورجوازيين ؛ وهامى اسلطة الآن تنتقل الى أولئك الذين يتكئون على عطف شعب باريس ؛ وانهاء الحرب الخارجية وحدها التى أفضت الى هذا الوضع .

### الموقف بعد الحملة البلجيكية :

سواء الموقف الحربى بعد فشل الحملة البلجيكية ؛ فقد آذرت بروسيا النمسا ؛ وتقرر أن يقود دوق برنسويك الجيوش البروسية النمسوية الزاحفة الى قلب فرنسا .

تدفقت فرق الحرس الوطنى من الأقاليم الى قلب باريس ، تتخذ من المناسبة فرصة للمظاهرة الوطنية . ويحمل الزمن الينا عبر السنين صدى لحن المرسيليز الذى كانت تنشده فرق جيش مرسيليا فى العاصمة يوم ٣٠ يونيو !

## لجنة تنفيذية مؤقتة :

فى ظل هذا كله ، تشكلت لجنة تنفيذية مؤقتة برئاسة دانتون الذى يدخل سيرة الثورة الآن لأول مرة . هذه اللجنة قوامها يعقوبيون لا هم مرموفون ولا هم غمورون ؛ كما فتح باب العمل فى الحرس الوطنى ، عامة الطبقة المتوسطة ذات يوم ، أمام الوطنيين جميعا ؛ فتشرب هذا الحرس بروح الثورة . وفى ١١ يوليو اعلنت الثورة أن البلاد فى خطر ؛ وفى ٤ أغسطس نشر بيان دوق برنسويك الذى هدد فيه بالدمار للمدينة الفرنسية ان أصاب الملك سوء ؛ مما زاد من روح العداء للملكية فى نفوس الشعب . وفى ١٠ أغسطس حدث ماتوقع الكل ؛ فقد سار فى أخريات الليل عدد من أعضاء لجان الأقسام ( لجان الناخبين فى أحياء باريس ) وحلوا محل المجلس البلدى وأقاموا من أنفسهم مجلسا بلديا ثوريا . وكان الملك قد استعرض فى صباح ذلك اليوم حرس شرف من الحرس الوطنى ، ومن حرس سويسرى أجير ، أدرك صاحبه من خفوت صوت أفراده فى تحيته ضعفه المنتظر ساعة يجد الجد . ولما ارتفع النهار ، بدأت باريس تهدد القصر بالهجوم عليه فى صورة واضحة ؛ فترك الملك قصره ولاذ مع عائلته بحمى الجمعية تعصمه وأهله ؛ وفيما هو غائب عن قصره ، دارت معركة حامية الوطنيس بين حراس القصر وقوات الشعب ، تقدم الشعب بعدها الى الجمعية يطلب عزل الملك وعلان الجمهورية . الا أن

هذا كان اجراء يستحيل فى ظل دسنور ١٧٩١ ؛ ومن تم  
فقد تقرر وقف الملك عن مباشرة سلطاته وانتخاب  
جمعية جديدة الغرض منها تقرير التغييرات المطلوبة فى  
الدستور ٠٠٠ وقامت الجمهورية ولم يبق الا اعلانها .

## وزارة جديدة :

عينت الجمعية أول كل شىء وزارة جديدة نولي  
شئون الداخلية فيها رولان وتولى شئون العدل دانتون  
وحاول لافاييت أن يحتج ؛ ولكنه سرعان ما أدرك خطورة  
موقفه ، فترك عمله فى الحرس الوطنى ، وعبر الاطلنطى ،  
حتى يسدل الستار على سيرة حياته فى قصة الثورة .  
وفى باريس كان المجلس البلدى أقوى شأنا من الجمعية  
التشريعية التى كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة . وفى  
المجلس ، كان روبسبير هو القوة الفاعلة : طلب أن  
يكون النظر فى قضايا الاجرام ضد الدولة من شأن  
المجلس ، فتمت الموافقة على ذلك ؛ كما تم تعيين لجنة  
رقابة ، وهى ضرب من لجنة تنفيذية رأسها المفكر مارا .

## الموقف ابان الحرب :

وسامت أنباء جبهة القتال يوما عن يوم ، وعاد  
التوتر تزداد حدته فى باريس ، حتى طلب دانتون الاذن

بتفتيش منازل من يرتاب فى عدائهم للثورة • فاحتظت  
السجون بنزلائها ، وفيهم البرىء ، وفيهم المتآمر ، وكلهم  
موضع ظن بمناهضة اليعاقبة ، وتكشف لنا قولة دانتون  
اذ ذاك حقيقة الموقف : - « ان الدولة تقف بين  
عدوين : عدو فى الخارج وعدو فى الداخل » •

### مارا والقتل الجماعى :

وفى ٢ سبتمبر ، بدأت حركة بث الرعب فى قلب  
العدو ، فالحقت بالسجن محكمة تقضى بالاعدام فى الحال؛  
وماهى الا أن غصت ساحات العاصمة بأجسام من أزهرت  
الثورة أرواحهم ، ذلك القتل الجماعى الذى يعتبر مارا  
المستول الأول عنه ، مهما قيل من أن سوء أنباء المعركة  
الخارجية ألهب عواطف الفرنسيين الى حد الانغماس فى  
هذا الانتقام الأعمى الشامل الذى بلغت بشاعته حدا  
جعل معه قادة الثورة يبرثون ساحتهم من وزره •

وكذلك شهد شهر سبتمبر أحداثا هامة أخرى •  
فحين بدا انتصار الحلفاء على فرنسا قاب قوسين أو  
أدنى ، كانت تفعل عوامل الخلف فعلها فى اضعاف شوكة  
الحلفاء ؛ وتذهب بروعة نصرهم ؛ فقد عاد الوفاق بين  
بروسيا والنمسا يتحطم على صخرة المطامع البولندية ،  
فلم تبلغ قوة الحليفين أوجها التقليدى • بيد أنه مع

ذلك بقى الطريق مفتوحا أمام الجيش الغازى الى قلب العاصمة الفرنسية . وهم العدو يقصف بمدفعيته مابقى من المقاومة الفرنسية فى طريقه . ثم راح يقوم بحركة التفاف دائرية ولكن ليوافقه جيش فرنسى صغير على تل فالى يفلح فى رد الهجوم عليه ويتطور الموقف فى مصلحة الفرنسيين ، فينتصرون . ويقول جوته الذى كان حاضرا هناك : « من هذا اليوم وهذا المكان تؤرخ حقبة جديدة فى الدنيا » .

### انتخاب المؤتمر :

بدأت انتخابات المؤتمر وقت قيام مذابح سبتمبر . واعتقد الناس أول الأمر أن نتيجة هذه الانتخابات تعنى انتصارا كبيرا للمعتدلين ؛ ومع ذلك فقد امتنع كثيرون عن التصويت . وفى تشكيل هذه الهيئة الأخيرة كان لليعاقة خمسون عضوا وللجيروند مائة وعشرون عضوا ، وما تبقى من الأعضاء ويربو عددهم على ستمائة ، لم يكن ينتمى واحد منهم الى حزب بعينه . عين المؤتمر الوزارة ، وأسلم السلطة التنفيذية الى لجان .

### مصير الملك :

كان أول أمر يقتضى البت فيه هو مصير ملك البلاد . وجاء القرار على جناح السرعة ، فقد أعلن المؤتمر الغاء

الملكية واعلان الجمهورية فى ٢١ سبتمبر بموافقة  
اجماعية ثم جاء دور مسألة الملك . بدا بادىء الأمر أن ليس  
هناك أساس قانونى تمكن محاكمة الملك بمقتضاه ، فقد  
قرر الدستور أن الملك يفقد العرش اذا أخفق فى حرب  
خارجية ، وهامو ينال جزاءه فيعزل من منصبه . فماذا بعد  
ذلك ؟ ولكن الحزب السائد فى الهيئة الجديدة ، لم يقبل  
بقانونية الموقف ، وسرعان ما صيغ قرار الاتهام ووجه الى  
الملك فى ١١ ديسمبر ، وتضمن القرار تهما كثيرة ، أهمها  
التآمر على سلامة البلاد ومحاولته هدم الدستور . طلب  
الملك الدفاع عن نفسه أمام هيئة المؤتمر التى كانت تتولى  
محاكمته ، الا أنه كان دفاعا لا غناء فيه ؛ فقد تقرر اعدام  
الملك الذى تم فى ٢١ يناير عام ١٧٩٣ فى مكان يدعى  
سابقا «ميدان لويس الخامس عشر ، ويدعى الآن « ميدان  
الجمهورية » .

### حقيقة شعب وملك :

وقد يطيب للقارىء هنا أن يقف قليلا ويلقى على  
نفسه هذا السؤال : هل أخطأ المؤتمر من جميع الوجوه  
فى الحكم على الملك ؟ الواقع الذى يستقيم مع منطق  
الثورة أن لا . ونرجع القهقرى عبر السنين القلائل التى  
انتهت باعدام صاحب العرش الفرنسى لنرى ماذا كان

من أمر الشعب حيال الملك وما كان من أمر الملك حيال شعبه ؛ وكيف كان يصعب ان لم يكن يستحيل أن ينتهى الموقف فى آخر الأمر الى غير ما انتهى اليه .

لقد ظل الشعب يحب مليكه قرابة عشرين عاما ، وتشهد الثورة فى أيامها الاولى ، بل والى نهاية طورها الاول أن الشعب لم يكن يريد غير ملك يرعى حقوقه ، أو لم يعلنه الدستور « ملك الفرنسيين بمشيئة الله واردة الشعب » ؟ ! ، ذلك الدستور الذى نص فى الوقت نفسه على حقوق الانسان الفرنسى وغير الفرنسى . أو لم يعد الشعب فعرض على مليكه بعد هربه أن يوافق على الدستور فيبقى ملكا للبلاد وعفا الله عما سلف ؟ ! هذه وغيرها حقائق لا تقبل الجدل ، تذهب جميعا للدلالة على صدق حسن نوايا الشعب تجاه مليكه الذى دعت طبيعته وتصرفاته الى ما أسلمه فى ختام الأمر الى المقصلة . من ذلك ما سبقت الاشارة اليه من ضعف شخصيته وضعف ارادته ، ذلك الضعف الذى دعاه أن يسمتع لنصائح خطرة ، وخصوصا من زوجه النمسوية ماري انطوانيت ، وحدا به الى دس الدسائس للثورة فى ضعف وخيانة ، فهو قد أذن لشعبه أن يثور ، وأن يثور عليه آخر الأمر فيعزله أولا ثم يسجنه ثانيا ثم يعدمه فى النهاية .



## بعد اعدام الملك

كان مستقبل الجمهورية ينوقف على الحرب وما تتمخض عنه . وقد تلقت فرنسا أشد صدمة بعد اعدام الملك ، فقد أعلنت انجلترا الحرب عليها ، تلك الحرب التي تعددت أسبابها . فقد أثار الرأي العام الانجليزي قتل الملك الفرنسي ، لا سيما وقد جعل الانجليز يصفون الى بلاغة برك وروعة بيانه ، وهو يشن هجومه الساخط الشديد على الثورة وأهدافها . ثم ان الفرنسيين كانوا قد أحرزوا انتصارات كثيرة ، فهم قد عبروا الراين ودخلوا بلجيكا ، وهو أمر أعظم خطرا وأبعد أثرا من كل أمر سواه . وازداد سوء الموقف من وجهة النظر الانجليزية ، حين أعلنت الثورة بعد أن مكنت لنفسها داخل بلدها ، عن استعدادها لشد أزر كل حركة وطنية تدعو الى الحرية . فالفرنسيون اخوة الشعوب جميعا . وكان هذا في رأى الانجليز ، دعوة صريحة الى كافة شعوب الأرض بالنهوض في وجه حكوماتها التي يثقل سلطانها عليها . وفي النهاية تصادم مصالح البلدين وخاصة في ميدان التجارة . ومن ثم لم يثر عجبا أن تطرد انجلترا السفير الفرنسي فور سماعها باعدام الملك ، وأن تستشف فرنسا هذا الموقف من نسيج الأحداث ، فتسرع باعلان الحرب عليها ، وعلى حليفها هولندا اللتين انضمت أسبانيا اليهما بعد قليل .

## المؤتمر يعد للموقف :

على هذا النحو ، تعين على فرنسا ان يواجه حلفا  
أوربيا قويا ضخما نخطر في سلكه دول كبرى -  
بروسيا والنمسا وبريطانيا ، وتوفده دول صغرى هي  
هولندا وسردينيا وأسبانيا . وقد شهد ربيع عام ١٧٩٣  
تفاقم الخطر وتراكم الكوارث في مختلف الجهات ، ولم  
يلبث أن امتد شبح الخطر الى الداخل فتشعب ما يشبه  
الحرب الأهلية في الحركة التي قامت جنوب نهر اللوار .  
وفي وسط هذه المدلهمات جميعا ، اتخذ المؤتمر  
عدة قرارات حاسمة . عزز الجهاز الحكومي الذي عمل  
على القضاء فورا على أعداء الثورة ، فشكلت محكمة الثورة  
في ٢٩ مارس عام ١٧٩٣ ، وعلى أثرها شكلت لجنة الأمن  
العام وهي الهيئة التي تولت أمور فرنسا في العامين  
التاليين ، والتي يرجع الفضل اليها في كل ما أحرزت  
فرنسا من انتصارات وخلص ، وكانت هذه اللجنة  
تتكون من تسعة أعضاء بيدهم السلطة الفعلية . كذلك  
أنشئ نظام « الوفادة التمثيلية » وقوامه أناس يبعثون  
الى أنحاء البلاد المختلفة يجمعون المال للحرب في ظاهر  
الأمر ، ويمكنون للحكومة المركزية وسيادتها في باطنه .  
وهكذا نرى فرنسا ترتد الى نظام الحكومة المركزية في  
الحكم مرة أخرى ، تحت تأثير الحرب ، ذلك النظام الذي  
كانت تعمل الملكية به في القرن السابع عشر والقرن  
الثامن عشر .

كان الجيرونديون هم الذين أوتوا بلجنة « الأمن العام » هذه ، ولكن أعضائها كانوا من اليعاقبة وعلى رأسهم دانتون ! وهو شخصية غريبة الأطوار فعلا فى تاريخ الثورة ، وكان ينظر اليه الكثيرون على أنه رجل يفرم بالدم المراق . ولكننا كلما أمعنا النظر فى مجرى حياته ، أطلت علينا شيئا فشيئا حقيقة ، وهى أنه مع ميله الظاهر الى اراقة الدماء عند الحاجة ، كان داعية الى الرحمة واحترام القانون وغير ذلك مما يسم الرجل الأمين ، وذلك حتى لا تتردى الثورة فى مهاوى الفوضى ، وتنغمس فى شهوة اراقة الدماء ، مما كان يضمن القدر للثورة فى غدها القريب . ومن ثم فعلى الرغم من تبعية دانتون الحزبية لليعاقبة ، يحكى لنا التاريخ أنه كن يخطب ود الجيروندي من أجل هذه الغاية مرة تلو أخرى ، ولكنهم كانوا يصمون أذانهم عن ندائه ، مما أدى الى الصدام العنيف بينهم وبين اليعاقبة فيما بعد ، وأقصد ذلك الصراع الذى أسلم السلطة آخر الأمر الى أيد قليلة جعلت تتناقض وتتناقض حتى غدت واحدة - هى يد نابليون بونابرت .

وجدير بالذكر هنا ، أن موقف الجيروندي من الثورة جعل يتدهور تدريجا ، تدهورا ساعد عليه بعد القوى المعضدة للجماعة عن العاصمة الفرنسية ، حتى انتهى الأمر - رغم نجاحهم فى تقديم مارا اليعاقبى الى محكمة الثورة - الى القبض على معظمهم وتقديمهم للمحاكمة ، ومن بعدها - المصيلة .

## حكم الارهاب يبلغ أوجه :

وبسقوط دولة الجيرونديين ، يمكن القول ببلوغ حكم الارهاب الذي بدأ في أغسطس عام ١٧٩٢ أوجه . ومعنى هذا الكلام بعبارة أخرى اعتلاء قلة معينة السلطة في البلاد ، قلة همها الأول ، وقد ألقت وراء ظهرها بالتقاليد الدستورية ، الدفاع عن سلامة البلاد . لقد رأت الدنيا أكثر من وجه حكم ارهاب ، وشهدت أكثر من حكومة تقف على قدميها عن طريق العنف وبث الرعب في قلوب أعدائها ، ولكن وجه المفارقة الحقيقية في موقف اليقافة الارهابي هو أن حكمهم وان اتكأ على المحكمة الثورية ، ومن ورائها المقصلة ، انما كان باسم الديموقراطية وسيادة الشعب . ولم يكن يثير غرابة بعد ذلك أن يتقلص ظل سلطان المؤتمر فيتناقص أعضاؤه الذين جعلوا يتوارون عن الأنظار شيئاً فشيئاً خشية خطر يذهب بحياتهم في يوم قريب . وبقيت السلطة الفعلية في يد اللجان ، تلك اللجان التي لم تكن تجد بدا رغم ذلك من عرض قراراتها النهائية على المؤتمر للتصديق عليها . واذن ، فقد كانت « لجنة الأمن العام » هي اللجنة الهامة الوحيدة في فرنسا كلها . وقد بقي دانتون رئيساً لها الى يوم ١٠ يوليو ، فكان يخلق حاجته من الرجال من بين الصفوف ، ويمد الجيش بحاجته من السلاح بما يجمع من مال الأهليين ، وكان يفعل كل شيء يضمن سلامة كيانه

البلاد ، فاذا جاء يوم ١٠ يوليو ، وجرى التقليد العادى الذى يقضى باعادة تعيين اللجنة ، اذا المؤتمر يحذف اسم دانتون من بين أعضاء اللجنة الجديدة التى وافق عليها ويحل محله روبسبير الذى عرف عنه اتباع مذهب روسو . ومنذ ذلك اليوم الى يوم رحل عن الدنيا ، واسمه ، أى اسم روبسبير ، أبرز الاسماء فى سجل تاريخ الثورة . وفى الرجل مثاليا الى النهاية ، يحلم ببناء اجتماعى تنبئى اقامته فى فرنسا ساعة تزول الأخطار الماثلة ، بناء يقوم على الفضيله ويسند الى الدين ويقر السلام فى الارض ، ونعله كان(١) يرى فى موجة الارهاب السائدة وقتئذ سحابة صيف عما قليل تنقشع فالقضاء على أعداء الثورة فى الخارج والداخل أمر لا فكاك منه قبل كل شيء .

### الارهاب متصل

أتى اليعاقبة عام ١٧٩٣ بدستور جديد ديموقراطى انطابع للخفاية ، الا أنه لم يكده عرض ويوافق عليه حتى عطل . وفى غضون هذه الأيام القاتمة ، كانت تقوم محكمة الثورة بعمل شاق كثير يعينها عليه قانون الاشتباه الذى

---

(١) لم يكن روبسبير هو الذى ابتكر الارهاب ولا كان أداته ، وانما كان يرفع من شأن حكومة الثورة ويمجدها حتى ظن الناس بروعة بيانه أن الارهاب ليس شيئا بغيضا وحشيا ، بل أمرا معقولا يقضى فرضا .

نفذ في سبتمبر عام ١٧٩٣ ، فغصت السجون بنزلائها ، وتضخم عمل المحكمة حتى أرهق قضاتها ، وكان من ضحاياها في شهر اكتوبر من هذا العام ماري انطوانيت ملكة فرنسا السابقة ، التي كان يرى دانتون الابقاء على حياتها حتى يساوم العدو عليها ، ولكن فورة الشعور الوطني وقتئذ فوتت عليه الفرصة الذهبية . فقد كانت الملكة السابقة عدو النورة رقم ١ في نظر الناس ، وانما كانت تتبع زوجها الى مصير واحد . كذلك أعسم دوق أورليانز وهو الذي عطف على الثورة أول عهدا بالحياة ، وأفسح قصره للنشوار . وتبعه في طريق القبر مدام رولان ، رأس التفكير الجيروندي ، وأعقبها بايلي أول رئيس للجمعية الوطنية جزاء أمره باطلاق النار على الشعب البريء يوم أعلنت الجمهورية ، ومن بعد هؤلاء كثرة من ضباط الجيش .

## حكومة قوية

اذن ففي فرنسا الآن حكومة عاتية ماضية العزم ، قوية التصميم ، ويستمر أوار الحرب الأهلية هنا وهناك في أنحاء البلاد اثر سقوط الجيروندي ، فتتألب أقاليم كثيرة على حكومة باريس ، ويتخذ أهل الريف أهبتهم للانتفاضة الكبرى من أجل القضاء على اليعاقة ، وتندور معارك

ومعارك لا يبقى في الذكرى منها سوى طولون التي بز فيها نابليون أقرانه في جيش الدولة فدانت له المدينة العاصيه .  
وطيلة هذه الفترة من الزمن لم تكن الحرب الخارجية فد وضعت أوزارها ؛ فقد اخترقت جيوش الأعداء أرض البلاد في نلابة مواضع ، يشد أزرها ويضعف مفاومتها ثورات الأقاليم على الحكومة ؛ حتى شاعت نبوءة قرب سقوط الثورة . بيد أنه لم يكن الانهيار وانما الانتصار هو الذي ينتظر فرنسا على طريق الحياة في مستقبلها القريب . فكيف كان ذلك ؟

كانت فرنسا تتمتع في هذه الآونة الحرجة من تاريخها بحكومة قوية فعالة حقا ، فد عقدت عزمها على ضبط الأمور والقبض على ناصيتها ؛ فنشكيل لجنة الأمن العام ودانتون على رأسها وقيادة كارنو الحملة ، كل أولئك جعل انتصار الجيوش الفرنسية ممكنا انسانيلا معجزة الهية . فدانتون لم يزود الجيش بطاقة جديدة فحسب ، وانما زوده كذلك بسلاح أفضل من سلاحه السابق ونظام وتدريب وتكتيك على أسس جديدة ؛ وغير ذلك من عناصر النجاح في كل صراع مسلح ؛ ولنا أن نذكر هنا مبدأ الحرب الفرنسي الأساسي وقتذاك : « الهجوم المستمر خير من الدفاع السلبي . » كذلك دوت صرخة دانتون : « الجرأة ، الاقدام » ، وكانت شعار الجيش في كل حركاته . كما رأى هذا الجيش نفسه ضباطا كبارا جددا أمثال هوش وجوردان ومورا ، وجلهم من أوساط الناس ولهم

حظ من الدربة السابقة فى جيش فرنسا ، الا أن المجال  
انفسح الآن أمام عبقريتهم حتى تتألق وتروع أعداءها .  
وقد أصاب جنود الجيش مس من حماسة ضباطه ،  
والحماسة تلعب دورها فى الحروب دائما ، وهى هنا  
حماسة مردها الولاء للثورة دون الملكية ، وحب فرنسا  
دون الذات الشخصية . ومهما يكن من شىء فلم تكن هذه  
الحماسة غير واحدة من صفات ومزايا كثيرة اتسم بها  
الجيش الفرنسى آنذاك وعبدت طريقه الى النصر .

### موقف اليعاقبة :

ونولى أنظارنا الآن الى انصراعات الداخلية بين جماعة  
اليعاقبة . رأينا من قبل أن اليعاقبة قد دانت لهم الأمور ،  
ولكنهم الآن قد انقسموا على انفسهم انقساما عميقا .  
رأينا روبسبير يحل محل دانتون فى « لجنة الأمن العام » .  
ولكن هذا لم يفقد الرجل شخصيته السياسية ، فبدأ  
يدعو فى أروقة المؤتمر الى الأخذ بالحسنى فى كل شىء ،  
يناصره فى هذا ديمولين بطل انباستيل ، واحد طلعيه  
القائلين بالثورة على النظام القديم ونصيرها بقوة الكلمة ،  
منطوقة ومكتوبة .لقى اتجاه الزعيمين السابقين قبولا  
حسنا كبيرا فى صدور كثير من رجالات المؤتمر ، وان لم  
يقدر لأحدهما أن يوجه أحداث الثورة الكبرى . كذلك  
كان هناك المثلث الثورى المعروف الذى يؤلف أطرافه  
روبسبير وسان جيست وكوتون ، وثلاثتهم أعضاء فى



« لجنة الأمن العام » ؛ وينزعون الى ضبط الميزان السياسى الفرنسى فى الداخل أكثر مما يهتمون بالحرب الخارجية .  
كان روبسبير شخصية يحبها شعب باريس الحب كله ، وكانت تناصره كثرة من أهلها ، أقوياء مخلصون . وانما يمكننا أن نفهم مأساة حياة هذا الزعيم وسبب سقوطه ، حين ندرك أنه لم يكن هناك بد من أن يعلن ما كان يضمه من خير لوطنه وسط جو من العنف والقتل خيم على البلاد .  
وانما جاء سقوطه سريعا لاحيلة له فيه ولا قدرة على الحيلولة دونه لأنه كان رجلا لم تقو صفاته الطيبة على اخفاء مواطن الضعف فى تركيبه الشخصى ؛ فقد كان جبانا ومن هنا كان ، شأنه شأن كل جبان ، ينزع الى القسوة ، (١)  
وكان مغرورا ، وزاد من غروره ثقة صحبه به ؛ ومن هنا نعرف مرة أخرى كيف قصر أجل « نبي الانسانية وولى روسو » هذا ، فقصر معه عمر حكم الارهاب الذى لم تر البلاد مثيلا له فى بشاعته .

### هيئة أخرى بارزة :

والى جانب هاتين الجماعتين يتعين علينا ذكر جماعة ثالثة اتخذت المجلس البلدى فى باريس قاعدة لها ، وتضم

---

(١) لم يكن روبسبير يريد الارهاب ولكنه دفع عجلته أقوى من دى قبل وخاصة فى باريس ، حتى يخافه الكل فتدين له الامور ،  
يستطيع تنفيذ مآربه ، وخاصة تحقيق فكر روسو ، الذى شغف به الشيفف كله .

من شخصيات العصر البارزة شومت وهيبير ، وكان هذا الأخير خليفة مارا في قيادة الطبقات الدنيا في باريس . وعن هذه الجماعة المفكرة صدرت اجراءات كثيرة بالغة الأهمية ؛ ففضلا عن الاصلاحات التي دعت اليها ، نشأت في ظلها فكرة النظام العشري في الموازين والمكاييل الذي لم يلبث أن ساد العالم جميعا . وكانوا في كل ما يذهبون اليه يقولون انهم انما يتبعون ماهو منطقي وطبيعي في آن معا . ومن ثم نراهم يضعون تقويما جديدا ؛ فقد كان يسود شعور عام بأن الثورة ولاجدال تمثل بداية حقبة جديدة في عمر الانسانية ، مما تدل عليه عبارة روبسبير المشهورة : « ان فرنسا تتقدم أوربا بألف عام » . جعلوا أول أيام السنة يوم اعلان الجمهورية في سبتمبر عام ١٧٩٢ ؛ وتناولوا الشهور بالتغيير ، وقل مثل ذلك في الأسبوع ؛ فالأسبوع بأيامه السبعة في أصله الشرقي وطابعه الديني قد حل محله تقسيم جديد قوامه عشرة أيام آخرها يوم عطلة . وقد بقي هذا النظام قائما حتى تولى نابليون منصب امبراطور فرنسا عام ١٨٠٤ ، ثم نبئت بعد ذلك فكرة دين جديد يعتنقه الناس بدلا عن المسيحية ؛ وخاصة المذهب الكاثوليكي ، عقيدة الأغلبية آنذاك . وساعد على نمو الفكرة ماساد وقتذاك من شعور يقر بأن الثورة لا سبيل الى تمامها بغير تغيير ديني ، مما دعا اليه روسو في رسالته الكبرى : «العقد الاجتماعي» وقد بدأت الحركة القائلة بدين جديد تدور عجلتها في الاقاليم

قبل باريس ثم تم الاحتفال في كنيسة نوتردام في العاشر من نوفمبر بالدين الجديد - دين عبادة العقل ، وعندما حل يوم ٢٤ نوفمبر كانت قد أغلقت ٢٤ كنيسة في باريس؛ وامتد تيار الحركة فشمل الأقاليم حتى قدرت الكنائس المغلقة في فرنسا بـ ٢٤٠٠ كنيسة ، استحوالت كلها معابد لدين العقل الجديد . على أن هذا الدين الحديث لم يكن له من الشعائر وغيرها مالم الأديان الأخرى ، وان أدى الى الفرقة بين الناس مما بلغت آثاره ونتائجه مدى بعيدا .

### من آثار الفرقة :

حدث هذا كله في ظل اليعاقبة الذين كانت تأتمر فرنسا الآن بأمر ثلاث شيع منهم على ماسلف الذكر ؛ وكانت الأعوام التي تلت تحمل طابع الاضطراب الذي كاد يصل الى حد الفوضى . ولا عجب فقد دعا الخلاف في الرأي الى هذا الانقسام بين جماعة ألف بين قلوبهم الصراع من أجل فرنسا ، وآية هذه الحقيقة هنا ما حل بدانتون وديمولين وغيرها من أبطال الثورة .

### نهاية دانتون :

فقد ذهب دانتون اليعقوبي الكبير لأنه جعل يدعو الى الحسنى ولم ير المضي في طريق الارهاب شأن غيره ،

بل شأن نفسه من قبل ؛ فهو اذن رجل قد لانت قناته :  
وفى هذا اللين ميل الى التآمر على أسلوب حكم قائم .  
ألم يدع من قبل الى الارهاب حتى تذهب الملكية وكان  
له ما أراد ؟! لم يكن روبسبير يطمئن اليه فدعا الى اتهامه  
في أخريات مارس عام ١٧٩٤ . ووجه اليه المؤتمر تهمة  
الخيانة العظمى ، ف قيل انه اتصل بالأعداء ، ثوار الجنوب ،  
في نورماندى ، ووجه اليه المؤتمر بعد هذا تهمة  
الرشوة (١) ، ولم يهين له فرصة للدفاع عن نفسه . قال  
دانتون يومها متحديا لا مدافعا : « لقد كنت أخدم أمتي  
دائما ؛ وسأنام فى غدى فى ظل المجد » . قبض عليه ،  
أى على دانتون فى ٣٠ مارس عام ١٧٩٤ ؛ ونفذ فيه حكم  
الاعدام فى ٥ ابريل من العام نفسه ، وهو اليوم الذى  
أعدم فيه كذلك ديمولين ، بطل الباستيل .  
الدين الجديد :

قلنا قبلا ان فرنسا اتخذت لنفسها ديناً جديداً ،  
هو دين عبادة العقل . بيد أن هذا لم يكن يتفق ومايراه  
روبسبير الذى كان يتبع روسو فى رغبته فى شكل من  
الدين يقول باله ، ثمة عقيدة بسيطة لا تحير العقول .

---

(١) سبق أن اتهم دانتون بالرشوة فقد قيل انه ساوم على  
إطلاق سراح الملك يوم كان هذا سجين الشعب ، لقاء ٦ ملايين فرنك ،  
وتؤكد الدراسة التاريخية أن الثورة أثرت جيب الفرنسى الكبير ،  
الذى لم يرد الدفاع عن نفسه وان أنكر عليه المؤتمر حقه الطبيعى  
هذا ..

والآن وقد آلت اليه مقاليد الأمور فى فرنسا ، اذا الهيئة التى أعلنت من قبل عبادة العقل ديننا ، تعلن تغير هذا الدين والاعتراف بعبادة « الكائن الأعلى » . وتم الاعلان الجديد فى حفل كبير أقيم يوم ٨ يونيو عام ١٧٩٤ نصب فيه روبسبير رئيسا لهيئة المؤتمر وسط مظاهر الفرح والارتياح بالدين الجديد والعهد الجديد . ولئن رضيت كثرة من الفرنسيين عن هذا الحفل ، فلعلها فعلت بدافع الأمل فى أن تشهد خاتمة حكم الارهاب ، الذى قدر له أن يورق جفن الشعب بعد ذلك فترة ما .

### الوضع الداخلى :

ولما توارى دانتون عن مسرح الأحداث ، كان هم كارنو وصحبه من أعضاء لجنة الأمن العام دفع الغاصب الأجنبى من الارض الفرنسية وتعقبه الى أرضه هو . أما روبسبير وسان جيست وأعضاء اللجنة الآخرون ، فلم يروا التدخل فى الشئون الحربية ، وكان سان جيست يحلم مثل زعيمه وصاحبه باعادة بناء فرنسا على أساس مبادئ روسو من ناحية ، وعلى نسق حضارة الاغريق ورودا من الناحية الأخرى . فالمجتمع الفرنسى فى صورته المفضلة ، مجتمع بسيط ، ينعم بالسلام ويدعو اليه ، يزرع الارض التى توفر حاجات أهلها ، هم التربية فيها تكريس الفرد لخدمة الجماعة ، فهو مجتمع تغاير صورته من كل الوجوه صورة المجتمع الحالى التى تحدرت اليه من القرن الثامن عشر .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان عجله الارهاب لم تتوقف . فقد ساء الحال عن ذى قبل عند صدور قانون فى باريس تغيرت بمقتضاه اجراءات محكمة الثورة ، وهو قانون قضى على حياة الكثيرين ، وذلك على أساس من الشبهة انتى لا تكاد تعوزها اقامة الدليل على صحتها ؛ فقدم كثيرون قربانا للقانون الجديد .

### نهاية روبسبير :

بدأ روبسبير حملة نكدة الطالع عليه يوم ٢٦ يوليو بخطاب رائع على عاداته فى قاعة المؤتمر ، الا أن عدم تحديده أشخاص المقصودين بهذه الحملة حرك الشك فى قلوب الكثيرين فجمعهم ضده . ولو أن روبسبير قد حدد فى بيانه أناسا بعينهم لتغير الأمر . ولكن غموض خطابه أثار الشكوك ، ولما أعاد الرجل خطابه فى نادى اليعاقبة وحدد موقفه ، وعاد الى المؤتمر يريد أن يفعل المثل ، كان قد فات الأوان ، فلم يسمح كثيرون من أعدائه بسماع الخطاب ؛ وأخذت ضوضاء بالغة تفرق كلماته فى لجتها وتفتت عليه الفرصة ، حتى فرصة العمل من أجل حياته الشخصية ، فقد تقرر آخر الأمر اعلان القبض على روبسبير وسان جيست وأتباعهما المباشرين . وما هى الا أن نقل روبسبير وصحبه الى السجن ؛ وبدأت النهاية تطل برأسها . بيد أنه لما كانت المسجون تأتمر بأمر المجلس البلدى الباريسى ، وكان لروبسبير سلطانه الشخصى

على هذا المجلس ، فقد أصدر ، أى المجلس ، أمرا بإطلاق سراحه ، فلما اجتمعت هيئة المؤتمر فى المساء ، ووجدت عدوها الكبير فى عصمة من كيدها ، أدركت لتوها أن الأمور لم تعد تنضى بالقرارات أو أصوات الأغلبية ، وإنما بقوة السلاح . هنا أعلنت هيئة المؤتمر أن روبسبير خارج على القانون ، وأنشأت بعد ذلك تعدد عدتها لخوض المعركة الأهلية التى قدر لها النصر فيها ، وسار روبسبير آخر الأمر الى المصير الذى بعث اليه المئات !

### نهاية حكم الارهاب :

ومع موت روبسبير ، بدأ حكم الارهاب يلفظ أنفاسه الأخيرة . ولم ؟ لأن الموقف فى الداخل جعل يضطرب أشد الاضطراب ، ولأن حكم المقصلة لم يكن بوسعها أن يظل سائدا فى فرنسا القرن الثامن عشر ، ولأن الراى العام الفرنسى فى باريس أخذ ينفر من الارهاب ولا يرغب فيه ، الا أن هناك سببين رئيسيين لم يكن يمكن لحكم الارهاب بقاء معهما ؛ الأول أن الخطر الأجنبى قد زال ، وأن فرنسا كانت تقف الآن موقف المهاجم لا موقف المدافع على نحو ما كان عليه الحال قبلا ، وساد بين الناس شعور بالثقة والفخار ، حتى أن المؤتمر رأى أن من خطئ الراى ، بل والاجرام أن يتصل حصده المقصلة أرواح البشر ، والثانى ، أنه منذ سقوط روبسبير والمعركة قائمة بين المؤتمر والمجلس البلدى ، بين من يمثلون فرنسا

ومن يمثلون باريس ، وهى المعركة التى أراد فيها المجلس القضاء على المؤتمر ، فشاء القدر أن تكون الغلبة لهذا الأخير . وانخذ المؤتمر أهبطه ليؤمن السلطة التى خصل عليها بشق الأنفس .

سقط روبسبير فاعلق المجلس البلدى أبوابه الى الأبد وألت سلطاه الى جان ومايشبه اللجان ، كما أعيد بناء جهاز الدولة ، فقد أعلق نادى اليعاقة ، رمز التوره الداميه ، الى غير رجعه ، وحددت سلطات لجنة الامن العام . ومع شتاء عام ١٧٩٤ ، كان حكم الارهاب قد قضى نجه فى فرنسا ؛ وأطلق سراح خمسة وسبعين عضوا من الجيرونديين ، لم يلبثوا أن عادوا الى المؤتمر يباشرون اعمالهم من جديد فى وجه بقايا الارهاب القديم . وأقول بفايا الارهاب ، لأن العاصفه العانيه لم تكن قد استنفدت قواها جميعا ، ففى شتاء ١٧٩٤ ، قامت حرّة من الضرب القديم فى باريس تطلب الحبز ، وتطلب مع نفمة العيش العمل بدستور ١٧٩٣ . أخمد المؤتمر الحركة ، ودانت له الامور مرة أخرى ، وقام يفضى على بقية ارهاب السنين الماضيه ، فأعيد تنظيم الحرس الوطنى ، وردت أملاك ضحايا المقصلة الى ذويهم . على أنه فى يوم ١٠ يونيو ، وقع حادث ذهب بأمل رواد أنصار الملكية السابقة . فقد قضى ابن لويس السادس عشر نجه فى السجن ، وكان دعاة الملكية يرون فيه لويس السابع عشر . ولا يهمنا هنا ماحدث ، لا جملة ولا تفصيلا ، وانما الذى يهمنا أنه برحيل هذا الصغير عن



الدنيا ، آل عرش فرنسا الى أخى الملك السابق الكونت دي بروفنسى ، الذى كتب له تولى حكم فرنسا عام ١٨١٥ ، بوصفه لويس الثامن عشر ، والذى كان يعمل الآن فى جيش الأعداء ضد فرنسا .

### الدستور الجديد :

فى ضوء هذه الظروف التى يسودها انقلب ويكتنفها الاضطراب ، قضى العقل أن يوضع دستور جديد يوضح معالم الطريق ، ويحدد طبيعة الحكومة فى فرنسا ، ويكسب من الخارجين عليها من يمكن كسبه منهم الى صفها . ويعرف هذا الدستور بدستور السنة الثالثة الذى بقى حتى عطله أو ان شئت فقل ألغاه نابليون عام ١٧٩٩ .

نص الدستور الجديد على حقوق الانسان ، كما نص على واجبات المواطن ، كذلك قرر الدستور حق التصويت على أساس مدة اقامة معينة ، ودفع ضرائب معينة ؛ وقال ببرلمان من مجلسين ، لا تقل سن عضو الأول منهما عن ثلاثين عاما ، ولا تقل سن عضو الثانى عن أربعين ، ويمكن لهما عقد اجتماعاتهما خارج باريس ، كما احتفظ الدستور لمجلس الشيوخ بحق الفيتو حيال القوانين الصادرة من مجلس النواب ، وذلك حتى لا يتأثر بسلطان شعب باريس الذى كان بعيد الأثر فى سنوات الثورة الفعلية والذى ساعد على تولى نابليون السلطة . أما رأس الدولة فقد

رئى ألا يكون ملكا ولا رئيس جمهورية ، ولا حتى قنصلا،  
وانما لجنة تدعى « لجنة الادارة » من خمسة أعضاء ، تحل  
محل لجنة الأمن العام ، ويخرج منها عضو كل عام ، غير  
أن اصرار المؤتمر القائم على تمثيله فى البرلمان الجديد  
بنسبة نلشى أعضائه ، دعا الى اضطرابات جديدة فى  
باريس ، لم تلبث أن اتخذت شكل الصراع المسلح . ومرة  
أخرى ، عمد المؤتمر الى قوة السلاح ، فقام الجيش بالدفاع  
عنه وعن قصر التويلرى ، يشترك معه نابليون الذى برز  
وتألق نجمه فى معركة طولون سالفة الذكر . وكانت  
معركة فاندرمير بين قوات الشعب وقوات الحكومة . فتح  
الجيش نيران مدفعيته على الشعب فانتصر ، وان خسر  
نابليون فى هذه الموقعة مدفعا .

ولعل من أهم حقائق هذه الفترة ، أن الحكومة التى  
قامت أساسا للحفاظ على حريات الشعب أصبحت الآن  
تدافع عن وجودها فى مواجهة الشعب ورغم أنه ، ومن  
هنا كانت لهذه الحركة الأخيرة دلائها الكبيرة ، تلك الدلالة  
التي يعنى معناها عندما نعلم أن نابليون نال منصب قائد  
جيش فرنسا ، اعترافا بفضله وبالدور الذى لعبه فى  
اخماد الحركة المناهضة ، فكانت الترقية أول درجة على  
السلم الذى ارتقى به الى عرش الامبراطور فى فرنسا  
فيما بعد .

وفى ٢٦ أكتوبر انتهت أعمال المؤتمر وفضت  
هيئته .

## الموقف الحربى :

ونقترب من نهاية الكلام عن طور الثورة الأحمر ، حين نذكر احداث الموقف الحربى . فقد جرت معارك بحرية انتصر فيها الانجليز على الفرنسيين ، الا ان التفوق الانجليزى التام فى البحر كان يقابله تفوق فرنسى تام فى الارض ، فلم تفوق قدم جندى أجنبى أن نطأ ارض فرنسا ، ولعلنا لا نحتاج الى أن نعود فنقول انه مما ساعد على هذا الانتصار التام الذى أحرزته فرنسا فوق اليابسة ما كان من فرقه وخلاف بين صفوف الحلفاء . وكانت اول معاهدة سلام عقدتها فرنسا مع بروسيا فى بازل عام ١٧٩٥ ، تلك المعاهدة التى كان من أهم شروطها أن تحتل فرنسا ضفة نهر الراين اليسرى حتى تنهى الحرب مع جميع القوى المضادة لفرنسا ، وأعقبت هولندا بروسيا فى معاهدة سلام مع فرنسا ، أما أسبانيا فانسحبت من الميدان بعد قليل ، فلم يبق فى وجه فرنسا غير انجلترا والنمسا . وانه لأمر يستغرق سنوات وسنوات ، حتى تبلغ معهما الى سلام أو شئ من سلام .

ولم يكن يفوت الذين يستمسكون بيقينهم فى قرب انهيار الجمهورية عام ١٧٩٢ ثم عام ١٧٩٣ ، ثم شهدوا التكتيك الحربى الجديد والاستراتيجية الجريئة وانتصار جيوش الجمهورية اثر هذا كله ، لم يكن يفوتهم بعد ذلك أن ثمة قوة جديدة لها كيائها ولها خطرها قد دخلت ميدان التاريخ الأوروبى .

## بقية حياة الثورة :

مابقى من تاريخ حياة الثورة بعد هذا ، يكاد يطويه تائق شخصية كبرى - ألا وهي نابليون بونابرت ، مما ألحت اليه فى السطور السابقة . وقصته هى قصة الرجل الذى يسعى الى تقدم الصفوف جميعا وهو أهل لهذه الصدارة . وانما يعكس نابليون أحد قوانين التاريخ انماة : عهد من الفوضى والارهاب يبلغ ذروته ثم يبدأ عهد استقرار وسلام وقوة على يد شخص بعينه . ويمدنا الماضى هنا بمثالين درج المؤرخون على عقد المقارنة أو إبراز وجه الشبه الكبير بين حياة كل منهما وحياة نابليون : الاول قيام الامبراطورية الرومانية على يد يوليوس قيصر؛ والثانى حكم أوليفر كرومويل فى انجلترا عقب ثورة « البيوريتان » (١) . ولا يصعب على التحليل التاريخى أن يبلغ علة مثل هذا التطور الذى تكاد تطرد قاعدته ، فى المكان الأول ، نجد أن المجتمعات التى تمتحن بالبلاء يطحن أهلها ، لا تلبث أن تستبد بها الرغبة فى الاستقرار والنظام يردان لها السلام والرخاء . فاذا لم تسعفها الى غايتها الوسيلة الدستورية ، أو الوفاق بين الأطراف

---

(١) أو « المتطهرين » وهم جماعة من المتزمتين المشددين فى امور الدين ، ليس للهو مكان فى حياتهم ، حتى أن المسرح الانجليزى اغلقت فى أيامهم . ومن أعظم رجالهم الشاعر المعروف جون ملتن ، صاحب « الفردوس المفقود » .

المتنازعة ، أعربت عن رغبتها فى بلوغ غايتها تلك عن طريق جندى قوى أمين .

وفى فرنسا بالذات ، نجد أن ارادة الشعب والتصويت العام وان كان كلاهما موضع اجلال واحترام كبيرين ، لم يقررا شيئا أبدا منذ عام ١٧٩٣ ، حتى سلكت الأمة هذا الاتجاه . فالبلاد قد اعترق أهلها الكلال من فرص الجدل السياسى والنقاش الدستورى ، وخاصة وقد تحققت بعض الآمال وبقي بعضها الآخر لا سبيل اليه . لقد بهرت أنظار الفرنسيين انتصارات القادة العسكريين ، وهامى الانتصارات تتأكد حتى تكاد تكون صفة لازمة للجيش الفرنسى تحت قيادة نابليون . واذن فقد صحت قولة روسو قرب نهاية كتابه «العقد الاجتماعى» بضرورة سن قانون بكل رعاية الدولة الى خير مواطنيها ، حين تتعرض سلامة البلاد للخطر ، بينا نراه فى أوائل « عقده » يتحدث عن احساس خفى يساوره بأن هذه الجزيرة الصغيرة « كورسيكا » ستبعث الدهشة فى نفوس الأوربيين يوما . وقد تحققت نبوءته ! ويقول برك لصديق له فرنسى فى رسالة بعث اليه بها فى بداية الثورة ، وتدلى على فهم الموقف حق الفهم : « فى ضعف نوع من السلطة واضطراب الامور ترتيبا عليه ، يسود التمرد ضباط الجيش ، وتتفشى الحزبية بينهم فترة من زمن ، حتى يأتى جنرال يفهم كيف يجمع بين أهواء الجيش المختلفة المتباينة فيوجه اليه الأنظار جميعا . هنالك تدين الجيوش بالطاعة لشخصه ، وهنالك

يكون قائد الجيش هو سيدك وسيد ملكك ، وسيد  
جمعيته ، وسيد جمهوريتك كلها » .

### حكومة الادارة :

ونعود الى حديث الثورة نانية : رأينا أن حكومة  
الادارة التي آلت اليها مقاليد الأمور في فرنسا ، قد ردت  
معظم أعدائها على أعقابهم خاسرين ، فلم يبق في الميدان  
غير بريطانيا والنمسا . أما بريطانيا فقد قنعت بسلطانها  
البحري بعد أن أيقنت باستحالة أي نصر برى . بقيت  
النمسا اذا وحدها ، والى النمسا بدأت حكومة الادارة توجه  
ضربتها في اتجاهين : الأول جيش يقوده مورو وجوردان  
يمضي الى فينا ، العاصمة النمسوية ، عن طريق الغابة  
السوداء المعروف ، والثاني ، جيش يسير الى ممتلكات التاج  
النمسوي ومناطق نفوذه في ايطاليا ، ويرأسه نابليون  
بونابرت الذي غطت عبقريته على زميله في الشمال ،  
ومن ثم فقد استأثرت حملته بالاهتمام الاكبر، وكان لهادتائج  
بعيدة ، ارتسم بعضها على أفق المستقبل . من ذلك فرض  
نابليون الضرائب الباهظة على الولايات الايطالية وتهديده  
باستنفاد موارد البلاد الطبيعية وغير الطبيعية ان لم تؤد  
تلك الضرائب ، فقد كان ذلك التهديد أول خطوة رسمتها  
يد القدر على طريق الوحدة الايطالية .

ومهما يكن من شيء فقد أجبرت قوة جيوش فرنسا  
النمسا على الموافقة على الهدنة دون الصلح ، الذي مالبت

أن أكرهت عليه بعد قليل في معاهدة « كامبيوفورميو »  
في ١٧ أكتوبر عام ١٧٩٧ . ولعل أهم ملامح الحملة  
الاطالية اقامة جمهورية سيزالين ، وهى جمهورية مثالية  
تقوم على أسس نظريات روسو فى « العقد الاجتماعى » ،  
وحسن معاملة الفاتيكان ، مما يدل على بعد نظر نابليون .  
أما بريطانيا فقد أخفقت فى أن تقهر فرنسا فى  
الارض فسيطرت على البحر تمنع امتداد النفوذ الفرنسى  
فيما وراءه ، وكانت هذه ، أى فرنسا ، تفتش عن منفذ  
من مآزق بدا طريقه مسدودا . وفى النهاية اتجه التفكير  
فى دوائر حكومة الادارة الى مصر ، واليها سار نابليون  
راضيا أو كارها ، « حتى تنضج الكمثرى » . كما كان  
يقول ، فيستولى على السلطة فى بلاده . اتسمت الحملة  
الفرنسية الى مصر بالنجاح الذى حالف خطواتها الاولى ،  
فلما انتصر الانجليز فى البحر ، دعا هذا الانتصار الكبير  
الى عزل نابليون عن فرنسا ؛ وأدرك هذا خطر الموقف ،  
فأخذ يمكن لنفسه فى الشرق ، فيفعل مرة ، ويخفق  
مرات ، حتى حملته آخر الأمر مركب تحت جناح الليل  
الى بلده ليواجه مشاكل داخلية تتراكم وتتكاثر ، فلا يفرغ  
منها حتى يكرس جهوده للموقف الخارجى من جديد ،  
وقد أخذ يضطرب اضطرابا شديدا . فقد كانت هناك  
اطاليا بمتاعبها ، وكانت هناك انجلترا بوعيدها ، وكانت  
هناك النمسا بحنقها ، وكان هناك غيرها ، ، وكلها  
تتربص بالنجم البازغ فى سماء المجد الانسانى .

ومع عودة نابليون الى بلده ، نعود الى شئون فرنسا  
الداخلية فى محاولة نحو رسم صورة الموقف الذى مهد  
الطريق أمام نابليون لتولى السلطة فى فرنسا .

### بحر من المشاكل :

كانت حكومة الادارة غارقة فى نشاطها ، فالنقد  
انخفضت قيمته ، والكنيسة الجديدة لا يطرق بابها أحد  
تقريبا ، وفشلت صور أخرى من الدين فى استهواء أفئدة الشعب  
الذى ما لبث أن لاحت رغبته فى دخول حظيرة الدين القديم  
مرة أخرى . وكانت الحكومة يؤرقها الى هذا كله مشكلة  
المهاجرين وغيرها من مشاكل جعلت تكبر وتضخم على نحو  
فوت عليها الاهتمام بمسائل هامة كبيرة منها تمسك  
النظريين الفرنسيين بنظريات الحكم المثالية وخاصة فيما  
يتعلق بفصل السلطات ، فقد كان أمل تحقيق هذه  
النظريات لا يبرح النفس الفرنسية . على أن شخصية  
الحكومة ذاتها ، كانت سببا من أسباب مخنتها الرئيسية ،  
بل ان ما كانت عليه الحكومة من فساد وما ذاع عن  
دخائلها من فضائح ، كل أولئك عجل بنهايتها . وان لم  
تكن الفضائح بقدر ما كانت هزائم الجيش هى التى قضت  
عليها . ففى أكثر من مرة اضطرت الحكومة الى الاستعانة  
بالجيش فى عرض قوتها وجبروتها ونفوذها ، حتى تتمكن من  
اخراج أعضاء معينين من المجالس ، وهم الذين نالوا مقاعدهم  
فى تلك المجالس بفضل موافقة الشعب فى انتخاباته .



فلما حلت الهزيمة بالجيش ، كما حدث فى إيطاليا مثلاً ،  
وقعد عن تعضيد الحكومه لم يكن بد من سقوطها • تغير  
وجه الحثكومة فحل محل اقتدامى سيبس وبارا ودونو  
ومولين ، وعادت جماعة اليعاقبة ترفع راسها من جديد ،  
ولعل من بينها من كانت تحدثه نفسه بالاستيلاء على  
السلطة • وبدأت الامة تتلفت حولها تريد أن تعهد بأمرها  
الى من يهيم لها سبيل الكرامة والعلمانية •

### نابليون فى فرنسا :

عاد نابليون الى فرنسا عام ١٧٩٩ ، فقابلته الجماهير  
بعاصفة من الحماس الشديد ، فلم يكن يذكر له أحد  
اذ ذاك غير انتصاراته الباهرة فى إيطاليا ، أما محنته فى  
مصر ، فقد ردت الى أسباب لا يد له فيها ، وزاد نواضعه  
من حب الشعب له ، ولعله الآن بدأ يفكر فى تولى الحكم •

فقد «نضجت الكمثرى» على حد تعبيره هو عن سبيل  
ممهّد يبلغ به قمة الحكم • فالموقف الآن ، بعد عودته ،  
أسوأ كثيراً مما كان عليه عندما غادر وطنه منذ ثمانية  
أشهر ، فلا وجود للنظام الاجتماعى ، ولا استقرار فى  
حياة البلاد ، يريد الملاك ضمان ملكيتهم ، ويرغب  
القساوسة فى الاعتراف بهم والرجوع بهم الى حظيرة  
الفاتيكان • من هنا أدرك نابليون أن الثورة لابد أن تنتهى  
الى النهاية التى تكهن لها بها أولو النظر البعيد منذ

سنين ، أى الى ديكتاتورية عسكرية ، ولا سيما سيبس ، عضو حكومة الادارة اذ ذاك ، والفانونى بعيد النظر ، وقد قال ذات مرة : « انى أبحث عن سيف » ، ولم يكن السيف بطبيعة الحال غير نابليون . فلما عاد هذا الى فرنسا ، أخذوا يخططان معا فى أخريات أكتوبر لانقلاب ٩ - ١٠ نوفمبر ، ذلك الانقلاب الذى ساعد نابليون على بلوغ مآربه فيه وجود أخيه لوسيان على رأس مجلس النواب اذ ذاك .

رأى نابليون أنه لابد أن يطرأ تغيير على الحكومة : تقرب من بارا ، زميله القديم ، وخطب ود سيبس النظرى السياسى وجعل يخطط معه على ما سبق القول ، وغازل تاليران اليعقوبى الماكر الداهية . كان يصفى اليهم جميعا ، ولكن الراى الأخير فى أى موضوع كان رأيه هو . فكر فى رئاسة الدولة ، ولكن تفكيره كان يمضى على الطريق الدستورى ، فلا يزهق روحا ولا يريق دما .

### طريق نابليون الى الحكم :

أمل نابليون أن يستخدم المجلسان حقهما فى عقد جلساتهما خارج باريس ، فلم يكن جو باريس ولا دهما باريس مما يتفق ومصلحة مخططة ، كذلك أمل أن يكل اليه المجلسان فى سان كلو ، حيث يرجو اجتماعهما ، رئاسة الفرق الباريسية ، وأن يصوت الاعضاء هناك فى ظل تلك الفرق ، بالموافقة على مراجعة الدستور وأن يعهد

اليه برئاسة هذا العمل وتوجيهه . لم يكن يساوره الشك  
فى أنه متى تم له هذا كله ، فقد آل اليه سلطان كبير .  
أما حكومة الادارة فقد كان يرى عزلها وان فضل اغراء  
أعضائها بالاستقالة .

وفى يوم ٩ نوفمبر اشتم أعضاء مجلس الشيوخ  
رائحة مؤامرة ملكية ، فدعوا الى نقل المجلسين الى  
سان كلو لاجراء اجتماعاتهما هناك ، وهو اجراء دستورى  
سليم ، وأعطوا لنابليون قيادة الفرق الباريسية التى كان  
يصبو اليها .

بيد أن نابليون كان يوجس خيفة من يوم ١٠ يونيو ،  
فقد أحس شبح خيبة الرجاء وهو يمضى مع سيبس فى  
عربته الى مقر المجلسين ، حتى أنه حين وصلا الى مكان  
مشقة باريس ، أشار لرفيقه بأصبعه اليها قائلاً : « أى  
صاح ، اما أن تكون نهايتنا هنا أو فى قصر لوكسمبرج ! »  
وصدق حس نابليون ، فقد تطورت الامور يومها على  
غير ما يشتهى ، فحين خطب فى مجلس الشيوخ يريد أن  
يوافق أعضاؤه على مراجعة الدستور ، أعرض هؤلاء عن  
طلبه وصرخ بعضهم فى وجهه : « لاكرومويل !! » وفى  
مجلس النواب لم يكن الرجل أسعد حظاً ، فقد رفض  
الاعضاء طلبه كذلك . الا أن لوسيان ، أخا نابليون ،  
استطاع أن ينقذ الموقف ، فأعلن بصفته رئيساً للمجلس ،  
رفع الجلسة ، وتشاور مع نابليون على عجل ، فتقرر  
استدعاء الجند . اقتحم جنود الفرق الباريسية قاعة المجلس

وطرد الأعضاء المعارضون منها . أما حكومة الادارة فقد اضطرت الى التخلي عن الحكم ، فقد استقال سيبس وبارا ودوكو ، أما العضوان الآخران فقد ألقى القبض عليهما ووضعوا في قصر لوكسمبرج .

وفي نفس الوقت جمع سيبس وبونابرت بعض أعضاء مجلس النواب الموالين لهما ، وقرروا اقامة حكومة ادارة ، جديدة ، حكومة قنصلية أعضاؤها سيبس وبونابرت ودوكو . (١) وكذلك قضى على حكومة الادارة السابقة وعلى دستور السنة الثالثة في آن معا .

ورأى يوم ١١ نوفمبر عام ١٧٩٣ نابليون يقيم ثانية في باريس وقد وافقت فرنسا على الوضع الجديد .

### نابليون القنصل الاول :

وضع سيبس دستورا للعهد الجديد ، دستورا يقيم التوازن بين السلطات ، ولكن نابليون كان يرى أن السلطة الفعلية يجب أن تكون بيده . وكان له ما أراد ، فقد قضى على الدستور المذكور بجرة قلم وصار هو القنصل الاول ، صاحب الرأي النهائي ، يساعده قنصلان آخران يعملان مستشارين له ، هما كامبرسيه وليبرن ، (٢) .

(١) وتؤكد مصادر تاريخية كثيرة ان مجلس الشيوخ امر هذا الوضع الجديد .

(٢) لم يكن نابليون يؤمن بالشعب وكان يخافه ، وكان يرى أن الدستور الحق يتمثل في « قدرة خيال الحاكم على اللعب على مشاعر الشعب ومواطنه دواما » .

وتم تعيين مجلس دولة يشرع قوانين الامة ، وملئت مناصب الدولة وفق هوى أصحاب النظام الجديد ، ورضى الشعب الفرنسى أن تثول مقاليد الحكم فى البلاد الى نابليون ، فهو جندى قوى قادر على السير ببلاده فى طريق الرخاء تظلله الطمانينة •

واذا فرغنا من سيرة الثورة التاريخية فى مختلف وجوهها ، وهى تمضى خطوة خطوة على طريقها ، تحاول بين الحين والحين أن تحقق بعض الفكر الفلسفى الذى دفع عجلتها على الطريق أول الامر، فتصيب حيناً، وتخطئ آخر، وتنتشر أحياناً ، شأنها فى ذلك شأن كل ثورة أخرى • • فقد بقى أن يتناول الكلام هذا الفكر ومدى أثره فى المحيط الانسانى ، مما يشكل موضوع حديثنا فى الفصل التالى والآخر •



## الثورة الفرنسية ... في الميزان

« كان خير زمن وكان شر زمن .. حقبة حفلت بالرجاء  
وباليأس ..... »

• ( شارلز ديكنز في قصة المدينتين ) •

تميز العصر ، ابان قيام الثورة الفرنسية ، بلامح  
تحمل طابع الثورة ؛ وكان أبرز هذه الملامح ما تمثل في  
التناقض الكبير بين أعمال الساسة ورجال الدولة من  
ناحية ، والفكر القوي الذي يتسم به العصر من ناحية  
أخرى ؛ ولكي نفهم حقيقة الموقف في هذا الشأن ، لا بد  
أن نرسم صورة هذا الفكر وطابعه العام .

### طابع الحركة العقلية :

كانت فرنسا تحتل مركز الصدارة بين أمم العالم  
في مضمار الفكر ؛ وكانت الحركة العقلية اذا ذكرت ،  
انصرف الذهن الى الحركة الفكرية في فرنسا . وما كان  
هيوم وجيبون ولوك في انجلترا ؛ ولسنج وكنط وجوته

وشيللر فى ألمانيا ، الا حلقات فى سلسلة الحركة الفكرية  
التي يؤلف حلقاتها الاخرى فولتير ومونتسكيو مع ديدرو  
وروسو فى فرنسا .

ترى هل يمكن تمييز الخصائص لمثل هذه الحركة  
واسعة الانتشار؟ بادىء ذى بدء ، تبدو الحركة حركة عالمية  
الطابع والنظرة ؛ وهى من هنا تناقض فى صراحة طابع  
سياسة العصر السائد . فلم يكن الادب فى أمة من الامم  
التي ذكرت يضرب على وتر وطنى أو يبعث نفحة قومية .  
لقد كانت انجلترا وفرنسا طرفى معركة اتصل أوارها  
طيلة القرن الثامن عشر تقريبا ؛ ومع ذلك لم يكن الاتصال  
الفكرى بين الأمتين أكبر شأنا ولا أعظم خطرا فى أى وقت  
مضى منه فى هذا القرن بالذات . حقيقة كان فردريك  
الأكبر يحث العقلية الألمانية ويحضها على العمل الوطنى  
ويبث فى نفوس أهلها روح القومية ، حتى أننا نسمع فى  
أدب تلك الأيام ، وخاصة فى أدب شيللر أصداء لهذا  
البث الامبراطورى ؛ ولكن مع هذا كله ، تبقى الحقيقة  
قائمة أن الأدب الألماني فى تلك الفترة التي تغنى بعض  
أهلها بالوطن ، كان أدبا تشيع فيه روح الانسانية ، وروح  
العالمية ، شأنه فى ذلك شأن غيره من الآداب سالفة  
الذكر .

والسمة الاخرى لهذا الأدب ، وأعنى أدب هذا العصر  
بالذات ، هى الانسانية ، ففي غضون القرون التي خلت ،



منذ الميلاد وما قبله ، لم تغب هذه السمة عن وجه الأدب أبدا ؛ وهى وان شحبت لونها شيئا فى دهر الانسانية ذاك الطويل ، فانها لم تكن أنضر منها فى القرن الثامن عشر .

وثالثا وأخيرا ، نجد أن فكر العصر كان فكرا نقديا ، يكاد يعادى على الدوام دعاوى الكنيسة والأديان . وكان بعض كتاب هذه الحقبة لهم حظ من دين ، ولكن ما من واحد منهم كان نصيرا لعقيدة دينية الى حد أن يحسب له حساب .

### أئمة الفكر الأوربي :

ومن بين هؤلاء الكتاب جميعا ، يصح لنا أن نختار ثلاثة يتصدرون أرباب القلم يومئذ ، وهؤلاء هم فولتير ، ومونتسكيو ، وروسو .

### فولتير

كان فولتير أكبر الثلاثة شهرة وأكثرهم قراء ، ولكن فكره لم يكن عميقا ؛ فنراه لا يزود الفكر الأوربي بشيء ذى بال فى أى جانب منه ؛ ولكنه من ناحية أخرى ، كان أقسوى رب قلم فى أوربا ، قادرا على تعريف الناس بالأفكار ونشرها بينهم ؛ وكان نفوذه فى هذا المضمار يصل الى أوسع مدى . كانت ضرباته كلها لاذعة ، يوجهها الى أفكار الكنيسة وما تعمله ؛ ولم يكن من حيث الميول السياسية حرا أو ديموقراطيا ؛ وانما كان يرى فى

الاستبداد الحانى الكريم الذى يمارسه فردريك الاكبر فى بروسيا صورة الحكم المثلثى الذى ينبغي قيامه فى كل قطر من أقطار الدنيا . ولعل هذا الجانب منه هو الذى راق نابليون بوناپرت فكان ربيبه . وكان ، أى فولتير ، فوق كل شيء ، يهاجم فيما يكتب وبما يعمل عدم التسامح السائد فى عصره . فقد كانت أيام محاكم التفتيش قد ولت ، ولكن البروتستانتين الفرنسيين ما يرحوا يعانون من الاضطهاد الذى كان يرحل بهم عن الدنيا أحيانا كثيرة . وكان فى احتجاجه هذا ، وفى صور أخرى من العدااء لما حوله من نظم وتقاليد تقعد بالمجتمع الانسانى عن حياة الرضا والرخاء ، كان يمثل صوت الضمير الانسانى . فكانت قدرته العقلية الفائقة ، وذكاءه النادر ، وهجاؤه اللاذع ، وعبارته الرقراقة ، ومناشدته الانسانية فى كل ما يكتب ويقول - كانت كلها تشيع فى جنبات القرن الثامن عشر ؛ وتتغلغل فى كيان الثورة الفرنسية .

### مونتسكيو :

أما مونتسكيو فكان الرجل الذى يدرس مسائل الدستور ومشاكله ويتعمقها ، وكان بطبيعة مزاجه من المحافظين . كان كتابه العظيم « روح القوانين » ( ١٧٤٨ ) وفيه مناقشة عامة لأشكال الحكم ، خزانة أفكار أولئك الذين مضوا يسعون الى اعادة البناء السياسى فى فرنسا

فى السنين التى تلت • بل ان دستور الولايات المتحدة الأمريكية قد تأثر به الى حد كبير ؛ الا أن الكتاب ، على نحو ما اعترف مونتسكيو نفسه فيما بعد ، كان يحمل آثار فضل الدستور الانجليزى الذى كان يعجب به مونتسكيو وغيره من كبار رجالاى فرنسا فى ذلك الزمن • كان مونتسكيو يؤثر حكومة محدودة ، ثم نظاما من المراجعة والموازنة ؛ وكان ما يروقه أكثر من غيره فى النظام الانجليزى مادعاه بـ « فصل السلطات » • فكل هيئة من الهيئات التنفيذية والنشريعة والقضائية وحدة قائمة بذاتها ، منفصلة عن أختيها الآخرين ، وان كان قد أخطأ الحقيقة هنا ، حين قال بالفصل التام بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية فى انجلترا •

### روسو :

بقى بعد هذا روسو ؛ وكان أكثر كتاب عصره حظا من الانصار والاعداء ؛ فقد كانت كتاباته تشد البعض اليه ، وتثير البعض الآخر ضده ؛ وهو الى يومنا هذا موضع نقاش كثير يتناول أفكاره بين حين وآخر • ولا يكاد مزاج هذا الكاتب الفكرى أو العاطفى تجمعه أصرة بعصره ، فهو وان بدا احدى القوى البعيدة الأثر فى تيار الفكر الرئيسى فى زمانه ؛ فانما يبدو لنا أكثر من غيره ، فى غير عصره وأوانه ، فهو « يلقي بنفسه عبر التيار ويحاول السباحة ضده » • أما أسلوبه فأسلوب يحرك النفس وان لم يكن

له وضوح أسلوب فولتير . وعاطفة روسو الدينية عاطفة قوية جارفة ، ولكنه مع ذلك لم يكن فى حياته مسيحيا . كان يحس آلام عصره التى تبعثها الى الوجود مساوى . نظمه ، ولكنه لم يقترح علاجا واحدا أخذ به غيره .

لخص روسو فى كتابه المعروف « العقد الاجتماعى » الذى رأى النور عام ١٧٦٢ آراءه فى الحكم ؛ ولكنه ساق معناه فى عبارة عميت على الأفهام كثيرا فهى الى يومنا هذا مثار جدل عنيف ونقاش كثير . يبدأ صاحبنا كلامه فى « العقد » بالاحتجاج ، احتجاج الرجل الجريح الكرامة ، على الاستبداد ، فيقول : « ولد الانسان حرا ؛ ومع ذلك فهو مقيد فى الأغلال من كل جانب » . ان الدولة عنده مدينة بأصلها الى الشعب ، فهى ملك له لامراء . ومن ثم فالحق حق الشعب ، بالرغم من كل المعاهدات أو الدساتير التى تغير وجهه أو تلغى صوره . ويبدو من حديث روسو فى « عقده » أنه لا يظن الديموقراطية نظاما ممكنا ، اللهم الا فى الدول الصغيرة ، ويقول فى وضوح ان الحاجة قد تدعو الى ديكتاتور ؛ ويختم حديثه فيه بضرورة وجود دين للدولة ، فلا بد أن يفرض على الأمة بأسرها شكل من الدين بسيط لا يحير العقل ، مدنى لا يستعجم على الفهم ؛ حتى ولو اقتضى الأمر أن يكون جزاء رفضه اعتناقه الاعدام . وقد تخطت آثار فكر الرجل حدود بلاده وعصره ؛ وهى التى تجلت على نحو ما شاهدنا فى حياة الثورة الفرنسية .

## مفكرون آخرون :

لم يسترِع اهتمام الخلف من كتاب السلف في فرنسا غير هؤلاء الثلاثة الذين سقنا الى القارىء طرفا من حديث كل منهم : فولتير ، ومونتسكيو ، وروسو ؛ بيد أنه كانت تقوم الى جانب هؤلاء طائفة من مفكرين آخرين بعد أثرهم كذلك فى سير انثورة الفرنسية ، ويعرفون باسم الكتاب الاقتصاديين ، وقد تأثروا فيما وضعوا من مؤلفات بالكاتب الاقتصادى البريطانى المعروف آدم سميث صاحب كتاب « ثروة الأمم » . وأشهرهم هو كسنائى . ولم تكن هذه الطائفة تعنى بالأفكار الفلسفية التى تسود العصر ؛ كما أنها لم تكن تلقى تقديرا من أصحاب المذهب الفلسفى الشورى ، وخاصة فولتير ومونتسكيو .

## أثر المفكرين الاقتصاديين فى الثورة :

واذا نحن أردنا أن نشير الى بعد خطر هذه الطائفة المفكرة فى حياة الثورة الفرنسية ؛ وهى جماعة الفيزيو - قراطيين وعلى رأسهم كسنائى وميرابو ؛ تعين علينا قبل كل شيء معرفة مبدأ الجماعة وخصائص الفكر الاقتصادى الذى يدعون اليه .

يتمثل مبدأ الفيزيوقراطيين فى جملة واحدة : « ان ثروة الأمة تتناسب تناسبا مباشرا مع خصب أرضها » . وهم يقولون « ان الدولة انما تقوم لتعيد نظاما طبيعيا

الى سيرته الأولى وتصونه ، لا أن نتدخل فى عمل ذلك النظام . • وهم يدعون الى حرية التجارة بين الأمم مما أثبت صحته الاقتصادى البريطانى آدم سميث • ويرون فى النهضة بالزراعة طريق الرخاء • ومن هنا رأيناهم يشجعون اصلاح الأراضى فى فرنسا من جانب الحكومة وكبار الملاك • بيد أنهم كغيرهم كانوا يعلمون أو هم كانوا يرون أن اصلاح المنتظم لا يضعه موضع التنفيذ غير ملوك طغاة أو أقوياء • ومن أبرز ما يمثل ننظرتهم الى اقتصاد الأمة موقفهم من الضريبة المباشرة وغير المباشرة ؛ فقد كانوا يرون أن الضريبة المباشرة هى التى تفرض على الارض مباشرة أو دخل الأرض مما يشكل فى اعتبارهم مصدر الثروة الوحيد ؛ أما الضريبة غير المباشرة فهى عندهم تلك التى تفرض على صناعة البضائع أو نقلها أو بيعها •

وقد أثر الفيزيوقراطيون فى رأى العام حتى أنهم اكتسبوا سمعة سياسية خاصة ، ولاغرابة فى هذا فقد كانوا يعنون أوهم يمثلون مذهب «تدبير بيت الدولة» الذى كان يفرض سلطانه كذلك فى ألمانيا وقتذاك • ومن مبادئهم التى وجهت اقتصاد العصر : « الثروة تأتى جميعا من العمل فى الارض » ، «العمال هم أكثر الطبقات انتاجية» ، «سلطان الحكومة ينبغى أن يقل الى أدنى حد» ، «ان التجارة الحرة وقرار نظام تربوى عام هما أهم الاصلاحات التى تتطلبها الدولة الآن » • وأخيرا « الضرائب كلها ينبغى أن تخفض الى ضريبة أرض واحدة » •

وكانت هذه المبادئ فى نظر ميرابو « تكفى لتقويم ما اعوج من الأمر فى البلاد ، ولكى يعود عهد سليمان » .  
وكان ترجو يدين بالولاء لهذه المدرسة ، فكان يحاول تنفيذ تعاليم كسنای . ولا يعلو أثر هذه الجماعة فى الثورة غير أثر فريق روسو .

### اهداف الثورة :

فلما وقعت الواقعة ، بلورت الثورة اهدافها فى كلمات ثلاث هى : « الحرية والمساواة والاخاء » . وثلاثتها بصفة عامة والأولى والثانية بصفة خاصة مما يشق على العقل تحديدها ، فكان يتسع نطاق مفهومها مع مضي الثورة فى طريقها . ففى بادىء الأمر مثلا ، كانت « الحرية » تعنى أمن الفرد فى وجه سلطان الدولة ، وكان معنى « المساواة » المساواة بين الناس أمام القانون والضياء الامتيازات . أما « الأخوة » التى سعت الثورة اليها فكانت تعنى أن يتآخى أفراد الأمة لا يفرق بينهم ظل من المرتبة الاجتماعية فى أية صورة .

لم يكن يرى واحد من مفكرى العصر فى « الأخوة » لفظا يمكن أن ينصرف معناه الى العلاقات بين الأمم ، وان أدرك اثنان من ذوى العقول هذه الحقيقة الكبرى ، وهما كنط وروسو ؛ فكتب كنط رسالة بعنوان « السلام الدائم » يدعو فيها الى أخوة أوربية تستهدف تأمين ذلك السلام ؛

ونؤمن الناس ضد شرور الحرب فى أسلوب ينطق بنبل  
القصد ، فنراه يطلب أن يؤلف ملوك أوربا حلفا أخويا  
قويا ، يلزم كلا منهم بالوقوف الى جانب الآخر فى وجه  
الفسادة على حقوقه وأراضيه ، مما فيه نفع البشرية فى  
النهاية . وكتب كنت يطلب الشئ ذاته فى عام ١٧٩٥ ؛  
وان تناول الموضوع بشئ من التعديل الطفيف .

ولقد كان على روسو وكنت أن ينتظرا قرابة قرن  
من الزمان أو أكثر قليلا ، حتى تقوم عصبة الأمم ، تجسد  
محاولة الانسانية الأولى نحو تحقيق هذا الهدف السامى .

هذا شريط قصير المدى يرسم صورة الفكر الثورى  
أو فكر زمن الثورة فى فرنسا ؛ ولعل مما لا ينافى الحقيقة  
القول بأن هذا الفكر لم تنحسر موجته بعد مد فى بلده ؛  
وانما تخطى حدوده ، وأخذ ينشر ظله فوق ربوع المعمورة .

فالعالم اذ ذاك فى نظر كثرة من الناس يقترب من  
دنيا سعادة حقة ترسم الطريق اليها ثورة فرنسا «من رأس  
الدولة الى أدنى تشريع» . فهامى الولايات المتحدة الامريكية  
قد أنهت القول بملك ، وفرنسا من ورائها فى طريقها الى  
الشئ ذاته ؛ وكل شئ يومئذ الى السعادة المرتقبة « الى  
مدينة السماء » التى تحدث عنها القس الانجليزى المعروف  
« جون بانيان » فى القرن السابع عشر ؛ ثم كان الطور  
الذى لاذ فيه الكثيرون بكل مكان ، هربا من اضطهاد أو  
ارهاب أو اشمئزاز من زلات الثورة وسقطاتها وازدراء لها



اذ لم تحقق أهدافها • ويحضرنا هنا قول وليام هازلت ،  
الناقد الادبى الانجليزى الكبير: « كانت الثورة الفرنسية هى  
المباراة الوحيدة بين الفلسفة والتجربة • فنحن حين  
نستيقظ من غشية النظرية السعيدة ، تطرق آذاننا  
كلمات الحق والعدل والفضيلة والحرية ينطق بها قائلها  
فتلقى الازدراء البالغ أو عدم الاكتراث البادى على نحو ما  
يرتسم على محيا الرجل الذى تركته محبوبته ، من أثر  
أغاني الحب الجميلة » •

ولئن قعدت الثورة الفرنسية عن تحقيق بعض  
أهدافها ، فان من حقها علينا القول بأنه ما من ثورة فى  
الدنيا حققت أهدافها جميعا ؛ فهاهى ثورة انجلترا مثلا  
عام ١٦٨٨ ؛ بالرغم مما حقته من أهداف بعيدة لم تفلح  
فى أن تذهب بعدم التسامح الدينى كلية ؛ بل بقى كذلك  
من آثارها « التصويت البرلمانى اللامتناهى » •

### أثر الثورة الفرنسية :

وينتقل بنا هذا المثال من التاريخ الانجليزى على أن  
الثورة الفرنسية لم تكن نمسيح وحدها حين لم تحقق  
أهدافها كلها ، ينتقل بنا الى أثر هذه الثورة فى اثنين من  
أبناء الامة الانجليزية فى تلك الايام ، وما ينطوى عليه هذا  
الأثر من خلق أعداء وأنصار لها - نتيجة طبيعية مترتبة  
- هما ادموند بيرك صاحب كتاب « نظرات فى الثورة

فى فرنسا ( ١٧٩٠ ) ، وثوماس بين واضع رسالة « حقوق الانسنة » (جزءان : ١٧٩١ ، ١٧٩٢) .

بدأ الاحساس الحقيقى بالثورة الفرنسية فى إنجلترا يوم أنقضى القس برايس موعظته التى عطف فيها على الثورة الفرنسية وأغراضها فى غير اسراف غير أنها أثارت ثائرة عضو البرلمان الانجليزى «بيرك» الذى كتب مؤلفه «النظرات» سائلة الذكر ، يرد به على صاحب الموعظة ، فأسرع يرد عليه « بين » برسائلته «حقوق الانسان» وكان بين غارقا فى لجة الفكر السياسى الانجليزى والفرنسى المعاصر . ولا شىء بعد هذا فى مناخ العصر الثقافى حيال الثورة الفرنسية يستأهل الذكر ، اللهم الا كتاب جودون الموسوم « العدالة السياسية » وفيه يقف صاحبه من الثورة فى فرنسا موقفا معتدلا الى حد بعيد ، بيد أن الزمن نسج حول أعمال هؤلاء جميعا خيوط النسيان فيما عدا بيرك . فلم ؟ لأن « أشباح العظام » فيما يقول البعض «تسير فى الأرض بعد موتهم» . فالعاطفة أكثر من الفكر العقلى تبعث بالعظيم من قبره بعد موته ، فيسعى بين الأحياء من جديد ، فنحن نجد فى بيرك «التنوع ونجد فيه مخاطبة الانسانية» . (١)

### بيرك ونظرة الى الثورة :

ان بيرك وان « كره التعميم » فيما يقول به ، لم يرق

---

(١) «شلى وجودوين ودائرتهما» ليريلزفورد . انظر مراجع

له الفلاسفة ، • وكانت له فلسفته التي لن يلبث القارىء أن يستشف قوامها من خلال حديثنا عنه • لقد كان الرجل « عقلية بركانية (١) تقذف حممها مبادئ ساعة انفجارها بكل ما لها من قوة قاضية ، • ولا يستطيع التحليل المنطقي بحال أن يبلغ كنهه بترك ، فكل مبدأ يفوه به خطيب أو يدونه مؤلف ، إنما تضيء عليه المناسبة لونها ، والعاطفة ظلها ، وحال السامع أو القارىء مزاجه ، فبترك حين كان يتحدث عن الثورة ، كان يتحدث عنها فى ضوء سياسة العنف والقسوة التى تسود الثورة الفرنسية - ولا سيما طور الارهاب ، فتورته على الثورة هنا انما تترد الى منطق العاطفة لا منطق العقل ، حتى قالت عنه القصاصة الانجليزية التى كانت معاصرة له « فاني بيرنى » : حينما كان يتحدث عن الثورة ، كان يتخذ وجهه فى الحال هيئة الرجل الذى يدافع عن نفسه ضد القتلة » • وكانت هذه حقا سمة أقواله جميعا ، فرسالته هى نشر الفزع الذى يحسه وليس فى وسع أحد أن يجد سببا آخر يعكس به تدفق غضبه على أعدائه فى الرأى وقد تنبأ بترك بالارهاب قبل أن يستحيل حقيقة واقعة ، وبأثارة أوروبا كلها فى حلف ضد فرنسا • ومن يدري فلعله فعل بموقفه هذا الكثير تجاه تحقيق نبوءاته تلك !

على أننا لكى نعدل من موقفنا من بترك ، ينبغى لنا أن ننظر الى موقفه هذا من كل جانب • فماذا نجد ؟ نجد أن

(١) انظر المصدر سابق الذكر •

خوفه وفزعاه انما كانا خوف وفزع من لا يهتم بشيء يتعلق  
بشخصه هو ، ومن هنا يكون أجدر بنا وأعدل من جانبنا  
أن ندعو هذا الخوف باسم « كراهية القسوة » كان يكره  
فلاسفة الثورة • لم ؟ لأنه فى نهاية طريق تفكيرهم تقوم  
المقصلة • ولا أدل على صحة هذا من موقفه حيال دوق  
هاستنجز وبشاعاته فى الهند ولكنه لم يكن بوسعه أن  
يرى شيئا من بؤس انغلاحين الكتيب الذى دفع أصحابه  
فى الحقيقة الى الثورة ، ونسى « كراسات الظلمات » التى  
حملها معهم مزدوبو الشعب الى الجمعية الوطنية ، الا أننا  
فى خاتمة المطاف نعود فنقول ان موقفه لم يكن ناجما  
الا من كراهة الشر الذى كان يقاوم وجوده فى حياة الثورة  
مقاومته له فى استعمار الهند أو استعباد الزنوج وما يجرى  
هذا المجرى •

على أنه فى أساس النظرية السياسية ، نراه ، أى  
بيرك ، يقف موقف من بوافق أصحاب الثورة ، فهو  
يحتفظ بقول القرن الثامن عشر التقليدى من أن الدولة  
تقوم على أساس من « عقد اجتماعى » • وتلك نقطة البداية  
عند روسو كما نعلم ، وترتد فيما نعرف الى لوك فى نظريته  
عن « الحرية المدنية » مما دعا الى القول بأن الثورة الفرنسية  
« فكرة مستوردة » • بل اننا لنجد فى بيرك كثيرا مما يدل  
على قبوله بما سماه « الحقوق الطبيعية أو البدائية للإنسان »  
وهو وان غص الطرף عنها حيناً ، فانما نظرته نظرة من  
سبيله سعادة المجتمع • ويميل النقد الحديث « الى تأسيس  
عظمة بيرك على التنبؤ بالنظرة التاريخية السياسية » وقد

خلدت كتب المختارات تلك المقطوعات الرائعة فى كتب بريك  
لتنى تمجد استمرار حياة البشر ، وتربط الحاضر الى الماضى  
بسلسلة من حلقات تراث مقدس ، والتي تبعث رؤى تسطع  
بروعة النظام الاجتماعى والقول بالتاريخ ! وليس كذلك  
« بين » ، نقيضه الاول ، الذى لم يكن يعرف التاريخ وكان  
حظه من الاهتمام به أقل من حظه من معرفته له . على أن  
التاريخ بصفة عامة لم يكن مما يقبل به الثوريون الذين  
يرون فيه «فلاسفة التجديد يواجهون سفاضة السلطة» (١)  
ثم هم يأملون دائما فى الخير على يد القلة المتنسورة التى  
تستطيع أن ترفع كتل الشعب الى مستواها تدريجا . وهنا  
نقول ان بريك كان يرى أن الفرد فى ذاته « مخلوق أحق  
غبي » فى حين أن الجنس ، أى البشر ، « حكيم عاقل » وأن  
الارستقراطية الكريمة عليها أن تحتفظ بالشعب الخامل  
لا يضطرب ميزانه .

ترى ماذا بقى لنا فى بريك نحتفظ به الآن ؟! ان  
ما تبقى لنا من بريك انما هو براءة بيانه ، تلك العبارات  
العامة الرنانة والمبادئ التى يطبقها كل وفق هواه ، وان  
كان لها فى أيام بريك معنى الدفاع عن حق التصويت الذى  
يتطلب الاصلاح ، وكان احترامه لما قضت به العناية  
الالهية التى جعلت من المجتمع الانسانى ما كان ، يقف عقبة  
كأداء فى طريق النظرة الشاملة ، فكان أن رأى فى الثورة

---

(١) شيلي وجودوين ودائرتهما .

الفرنسية ثورة على أوضاع الله فى الارض ، مما يلهم الى ضيق افقه الفكرى .

غير أن هذا يكاد يضع فى أيدىنا مفتاح فهم «الديالوج بين برك والثوريين» . ذلك أن كل فريق يعمل بوحى عاطفة تعمى على الفريق الآخر . كان برك يبع صوته خوف الاسراف فى فرنسا ، وكان خصومه يؤمنون بأن التقدم ممكن انساني ، فليس للمرء أن يفكر فى يومه وحده وانما على غرار ما يفعل أهل الثورة ، لا بد أن يفكر فى غده ، لا ، بل وفيما بعد غده ، - ولعل هذه العقيدة كانت أولى عناصر التخفيف من وقع الارهاب على نفوس الفرنسيين ويحضرنا هنا ذكر رسالة كوندورسيه بعنوان : « صورة تخطيطية لتقدم العقل الانساني فى التاريخ » . وهى الرسالة التى جعل منها شعب فرنسا وثيقة قومية . يقول المفكر الفرنسى ان التقدم قد يبطئ أو يثبت خطأ ، ولكنه فى الحالين حقيقة أكيدة . وكان التقدم يعنى فى ضوء الظروف الجارية أول ما يعنى زوال عدم المساواة بين الناس وقال كوندورسيه ان افريقيا ستدخل طور حضارة يعتمد على الزراعة المستقرة ، وسيتخذ الشرق تشريعات حرة ، ومن ثم فلن يلبث أن تشرق شمس الحرية على الناس فى كل مكان . والشرق هذه الايام يحمل ملامح صدق ماكتبه كوندورسيه منذ أكثر من قرن من الزمان ، على نحو ما حملتها الايام القريبة منه اذ أعلنت الثورة المساواة بين الناس فانطوى هذا الاعلان على القضاء على الاحتكار ، وعلى تقارب

الثورات ونظام التأمين والتعليم العام المؤدى الى تقلييل الفروق العقلية بين الافراد وتحطيم فروق الطبقات ؛ وأوجت الثورة على السياسة فى العهد الجديد أن تخلق عالما لا يسمح فيه للساعى الى خيره الشخصى أن يجور على خير الآخرين . وهى الفكرة التى ردها الشاعر الانجليزى وردزورث - فهى عنده فكرة القدرة على بلوغ حال أفضل عن طريق التخلى عن أنوان التعصب المختلفة وأسباب الطغيان المتنوعة .

وبعد ، فصفوة القول هنا ، أن الثورة الفرنسية أحدثت أثرها فى بريك فى صورة اشمئزاز من بشاعاتها ، فعزف عن كل ما تدعو اليه ، ثم هب يشن غارته عليه لحظة أدرك خطر آثاره البعيدة . ومن العدل أن نقر هنا أن بريك الذى تأثر بالثورة على هذا النحو ، كادت تذهب صرخته صيحة فى واد وسط دوى الحماس الشديد الذى لقيته الثورة فى أيامها الاولى بين الانجليز ، وخاصة الشباب منهم ، فكان وردزورث وكوليردج وغيرهما من النفوس الرائية الى غد قريب ترجيه ، لا يرون فى الثورة الفرنسية غير نداء الى العمل ، ولعل رسالة جودون الموسومة « العدالة السياسية » كانت انجيل هذا الشباب المتطلع ، والذى لم تهبط حماسه للثورة ولا تسربلت باليأس نظرته الى فرنسا الا يوم اشتد ساعد الارهاب فيها ، فذبلت نبتة الامل وذوت فى نفوس أولئك الذين كان يرسم خيالهم فى ضوء الانتفاضة الفرنسية

الكبرى صورة مجتمع مثالي يفيض بالخير وينعم بالرخاء  
والطمأنينة .

وهذه النظرة الأخيرة ، تشكل موقف « بين » الى  
حد بعيد ، وبين على ماسبق القول ، هو الطرف الآخر من  
طرفي النظرة الى النورة الفرنسية .

### موقف بين من الثورة :

لعل البعض يذكر قولة فرانكلين « حيث الحرية  
يكون وطني » وهي عبارة تحذو بسامعها الى الاعتقاد بان  
صاحبها أحد أوائل الرواقيين ، وهي فيما نرى خير  
عبارة تفصح عن انسانية القرن الثامن عشر . ويقول  
بين ردا على فرانكلين في هذا الشأن : « حيث لا حرية  
يكون وطني » . وهي عبارة لا نجد خيرا منها من الناحية  
الأخرى ، اذا نحن أردنا قولة تعبر عن حقيقة هذا المجاهد  
في سبيل الحق ، وهي الشعار الذي حمله لافاييت الى  
أمريكا ، كما حمله بين من بعد ، بل انه كان كذلك شعار  
بيرون يوم شد رحاله الى اليونان يناصر أهلها ضد  
الأتراك من أجل الاستقلال ، ومن بعده شعار كل رجل  
يضع البذل فوق المتعة في اعتباره ، ويعلو بالاخاء فوق  
الوطن .

لم يكن بين ابن قرن بعينه ، وهو لا يحده تعريف،  
فكتاباته تنتمي الى عصر التنوير ، أما أعماله ففي « محيط



رومانتيكية » ، كان فى أسلوبه السهل الواضح يعبر  
عن فكر فاهم يجزع من الغموض ويخشى الظلال التى  
تمشى فى الأضواء ، وكان فى ازدرائه لتقاليد الكنيسة  
وسياسة الطبقة الارستقراطية متأثرا بفكر فولتير  
وروسو . كان لا يعرف غير لغته ، فاذا كتب ، كان  
ما يكتب أشبه بملحمة . رحل الى أمريكا واشترك فى  
تحريرها بالسيف والقلم من نير الاستعمار البريطانى .  
ولعل أروع سطور جهاده كتابه الموسوم « الأزمة  
الأمريكية » . الذى كتبه فى غبش الليل على ضوء النار  
الخافت فى معسكرات الوطنيين ساعة كان اليأس أدنى  
الى القلوب من خير يعم البلاد . ففعل كتابه فى نفوس  
الأمريكيين فعل السحر ، فكان أقرب من أى شىء آخر الى  
أغنية روجيه دى ليل الخالدة فى أثرها فى جيوش الثورة  
الفرنسية ، واليه يرجع الفضل حين اضطربت مالية  
الحرب الأمريكية اضطرابا شديدا إبان حرب الاستقلال ،  
فى الاسراع بالعمل على استقرارها عن طريق تخصيص  
مرتبه كله خدمة للقضية ، فحذا حذوه الجميع ، ثم هو  
استطاع بعد ذلك الحصول على عون من البلاط الفرنسى .  
لم يخلد الرجل يوما الى الراحة فى ظل الضيعة التى  
أوقفها عليه ولاية نيو يورك اعترافا بفضلها ، فآب الى  
انجلترا ليهجرها بعد حين . وقد يذكر الكثيرون أن  
لافايت أهده ، اعترافا منه بمكانته ، مفتاح قلعة  
الباستيل ، رمز الطغيان الفرنسى ، فبين ، فى نظر

الناس ، شيء من همزة وصل بين ثلاث ثورات ، الثورة  
التي نجحت فى العالم الجديد ، والثورة التي كانت تغير  
الآن وجه فرنسا ، والثورة التي لن تلبث أن تشتعل نارها  
فى انجلترا .

ظهرت « نظرات » برك « فى الثورة فى فرنسا » .  
فكانت تحديا لبين الذى سدد رصاصته اليها فى « حقوق  
الانسان » . وما الصفحات اللامعة التي يدافع فيها الرجل  
عن الثورة الفرنسية ضد هجوم برك ، وقد أخطأ فهمها ،  
الا أمثلة على صدق حجته الرئيسية . ان بين هنا يفصل  
القول فى حق الثورة ويطيح بنسيج العنكبوت من سلطان  
الماضى وشرعته ، فهو لا يرضى أن تحد الأجيال المقبلة فى  
حدود ما انتهت اليه ثورة ١٦٨٨ ، فكل عصر وجيل له  
حق حرية العمل من أجل نفسه ، فليس للانسان ملك فى  
أخيه الانسان ، وما دعوى جيل مضى فى حق حكم أهل  
الأرض من وراء القبور الا ضرب من الاستبداد بلغ من  
الوقاحة مداها - لقد قال برك بحق الميت فى حكم الحى ،  
ولكن ما تختار أمة بأسرها أن تعمله لابد أن يكون لها  
الحق فى أن تأتيه ، فالذين ارتضوا عام ١٦٨٨ أن ينزلوا  
عن حقوقهم خضوعا للملك وليم وورثته ، كان من حقهم  
أن يختاروا ، وهم بعد أحياء ، حتى أن يكونوا عبيدا .  
ولكن ذلك لا ينقص من حق أبنائهم مقدار ذرة فى أن  
يكونوا أحرارا ، فليس « للخطأ سلالة شرعية » .

وكان رد بين العظيم هذا ، خير دعاية فى انجلترا  
لممارسة حقوق الانسان على الطريقة الفرنسية .

ومهما يكن من شئ فان بين كان يحس فى قرارة  
نفسه أنه صنع بالفعل جمهورية بكتاب ، أما الكتاب فهو  
« الأزمة الأمريكية » وأما الجمهورية فأمريكا ، فلم  
لا يصنع كتاب آخر جمهورية أخرى ؟ لقد كان يثق ثقة  
عمياء بقوة الحجة وقدرتها على بلوغ النهاية ولا أدل على  
هذه الحقيقة من قول كارليل صاحب « الثورة الفرنسية »  
فيه : « انه يستطيع أن يحرر هذه الدنيا ، وسيفعل ،  
ولربما حرر الآخرة أيضا » . ولم يكن ، أى بين ، يذهب  
مذهب جودوين فى القول بالتعلّيم طريقا الى احراز  
الحرية ، فقد كان يرى هذا الطريق بطيئا ، ويرى أن  
الحرية مثل النصر يمكن احرازها بانقوة ، قوة الهجوم  
الماضى العزم ويستشهد بقول لافاييت زميله : « لكى تجد  
الامة الحرية ، يكفى لها أن تعرفها ، ولكى تكون حرة ،  
يكفيها أن تريدها » . أى أن تصمم على نيلها . لقد كان  
كتاب « حقوق الانسان » يقوم على جرأة التفكير وقوة  
الحجة حتى أن بت لم يجد سبيلا حيال صاحبه غير الأخذ  
بنظرية بيروك فى العدالة الجنائية ، يباشر أحكامها ضده .  
غير أن الرجل عمل بنصيحة صديقه الشاعر الانجليزى  
وليم بليك الذى قص عليه رؤية رآها له فى منامه ، تحكى  
بحث المسئولين عنه فى كل مكان . ففر الى فرنسا ،  
وصدر عليه الحكم غيابيا بالخيانة العظمى ، ولكن الرجل

بقى على مبادئه لا يخونها أبدا الى آخر يوم من حياته .  
وفى فرنسا آزر بين الغاء الملكية ، وكانت شجاعته فى موقفه هذا شجاعة من يريد خدمة الانسانية لوجه الله لا يريد جزاء ولا شكورا ، كان يقول بالغاء النظام الملكى لا باعدام الملك ، فهو انما يسعى الى القضاء على شرعة انظلم التى نخر فيها سوس الزمن ، ولا يسعى الى تغذية المقصلة بطعام شهى جديد . ولا يتوسع المقام هنا لذكر ما ترتب على هذا الأسلوب من التفكير أثناء حياته فى فرنسا ، وحسبى هنا ختام قصته فيها ، حين ساد الارهاب ، حتى جعل من الرحمة خيانة لا تفتخر ، فلقى دانتون حتفه . وتعرض بين للسجن توطئة لاعدامه . وكاد يساق الى المقصلة لولا أن شاء القدر الرحيم أن يسهو حارس زنزانه فيكتب العلامة المميزة لضحية المقصلة القادمة على بابه من الداخل لا من الخارج على مألوف العادة اذ ذاك ، ثم حمله البحر الى أمريكا ، ليقضى نحبه هناك بعد حين .

هذا هو بين ، ومن خلال سيرته لابد أن يكون القارىء قد ألم بموقفه من الثورة الفرنسية ومن غريمه الأتبر برك :

### بين ونظريته السياسية :

ولئن بقى شئ جدير بالذكر عن بين ونشاطه النورى الطابع ، فانما هو نظريته فى السياسة ، تلك النظرية

التي تقول : « ولد الانسان حرا كما خلقه الله ، حراً مساوياً ، وهذا ما يفترضه التنزيل والدين الطبيعي على حد سواء » . وليس برك « الذي يخشى الله أو ينظر بعين الرهبة الى الملوك » و « بعين الواجب الى أولى الامر » و « بعين الاحترام تجاه الاشرف » . وليس برك في هذا كله في نظره الا شخصا يقيم « متاهة من الحواجز والعوائق » بين المخلوق وخالقه . فالحقوق الطبيعية قائمة في الانسان بحكم وجوده على هذه الأرض ، والحقوق المدنية مؤسسة على الحقوق الطبيعية ولا قصد لها غير تأمين تلك الحقوق . وما الحكومة التي تقوم من بين أفراد الشعب الا حكومة قائمة على العقل والمنطق ، أما تلك التي « تنصب على الشعب » . فحكومة الغزاة والطفاة أو الكنيسة ، وما تقوم حكومة حقا على أساس « العقد الاجتماعي » حتى « يجلس أهلها على نحو ما يفعل الأمريكيون ، وعلى نحو ما كان يفعل الفرنسيون لوضع دستور على أساس حقوق الانسان » . وفي ضوء هذا الكلام ، وان صح القول شيئا خارج حدود الثورة الفرنسية ، تكون حكومة انجلترا أيام بين كما رآها هو ، حكومة فتح وغزو ، وكل كلام عن الدستور الانجليزي من قبيل اللعب بالالفاظ .

### الثورة الفرنسية والشرق العربي

يحكى التاريخ أن أول لقاء للنورة الفرنسية مع الشرق كان يوم هبطت الحملة الفرنسية أرض الفراغة ،

يوم جاء نابليون الى مصر على رأس هذه الحملة « عدوا في ثياب صديق » فقد كان يعلن شيئا ، ويبطن شيئا آخر . أعلن القائد الفرنسي أنه انما أتى الينا يحمل أفكار الثورة الجديدة ، يريد أن ينقل الينا حضارة لها خطرها . وكان قد دخل في روع المصريين شيء من حقيقة هذا الزيف اثر ما فعلته المدفعية الفرنسية في موقعة من أمر فانهم يواجهون شيئا جديدا في الحياة لا بد أن الأهرام وغيرها بيد أنهم لم يلبثوا أن أدركوا أنه مهما يكن من أمر فانهم يواجهون شيئا جديدا في الحياة لا بد أن يحسبوا له حسابا كبيرا ، قال نابليون انه أتى ليرفع عن عقول القوم في مصر غشاوة الجهالة الطويلة التي فرضها عليهم نظام الحكم التركي زمنا طويلا ، ويرفع عن كاهلهم عبء الاقطاع الذي حرم الأهلين ثمرة العمل في الأرض الطيبة منذ وقت بعيد . قال هذا وأيده في نظر أهل البلاد اذ ذاك العدد الضخم من العلماء والأدباء والفنانين الذين صحبوه الى مصر مع مطبعة عربية وأخرى أفرنجية . أما الذي كان يبطنه نابليون ، فهو ما نعرفه جميعا من أنه انما أتى الى مصر لينتظر حتى « تنضج الكمثرى » . أولا ، كما سلف القول فيعود سلطانا لبلاده ، وليؤسس امبراطورية فرنسية في الشرق وليقطع على انجلترا طريقها الى درة التاج البريطانية - الهند ، وغير ذلك مما حققه البحث التاريخي وفاضت بالحديث فيه كتب التاريخ .

ونرى نحن أنه كان للثورة اثر بل فضل غير قليل

فى أكثر من ناحية • فهى قد نبهت الأذهان هنا الى ضرورة الأخذ بأسباب المعرفة ، فالتخلف لابد أن يورد القوم مورد الهلاك ، وها قد حلت بهم كارثة الاحتلال • ولا أدل لى صحة هذا القول من نشاط حركة الترجمة والتبئات لى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية ، وخاصة بعد زوال لىكم الفرنسيين فى مصر • ومن منا لا يذكر « مدرسة الألسن » التى أنشئت عام ١٨٣٧ ، تلك المدرسة التى ساعدت كثيرا على نقل المعرفة الأوروبية الى مصر ونشرها بين بنيتها • وفضل آخر لا يمكن أن نغفله - أن وضع الفرنسيون مفتاح حضارتنا فى القديم فى أيدينا يوم كشف شامبليون سر اللغة الهيروغليفية على حجر رشيد • فلعل الحضارة المصرية القديمة لم تر النور ولم يقف أحد عليها فى أوج عظمتها الا بعد هذا الكشف العظيم • فالحركات الجديدة فى ميدان التنقيب عن الآثار المصرية لمعرفة حقائقها لا يمكن أن تنسى هذا الفضل الكبير وان راء عن ذاكرتها مر الأيام • والقانون الفرنسى - هذا لفضل الباقي أيضا ، أخذ القانون المصرى عنه كثيرا ، ولا يكاد يغفل أثره أحد حتى أبناء هذا الجيل من دارسى القانون : وقل مثل ذلك فى نظام الحكم والنظم الاجتماعية وغير ذلك مما يتأبى على الحصر •

١ - دائرة المعارف البريطانية

٢ - دائرة المعارف الأمريكية

- 3 — Grant Temperly :  
History of Europe in the Nineteenth Century.
- 4 — Hazlitt, W.  
The Spirit of The Age.
- 5 — Brailsford, H.  
Shelley, Godwin and their Circle
- 6 — Burke, E.  
Reflection on the Revolution in France.
- 7 — Paine, T.  
The Rights of Man.
- 8 — Carlyle, T.  
The French Revolution

وطائفة من المقالات فى المجلات الادبية الغربية والعربية  
الى جانب الكتب المختلفة التى يشير اليها سياق الكلام عن  
الثورة فى فرنسا •



# فهرس

المصفحة	الموضوع
٣ .. .. .	كلمة تقديم
١٥ .. .. .	الثورة الفرنسية ٠٠٠ بيضاء
٥٣ .. .. .	الثورة الفرنسية ٠٠٠ حمراء
١٠١ .. .. .	الثورة الفرنسية ٠٠٠ فى الميزان
١٢٦ .. .. .	مراجع الكتاب

المطبعة الثقافية

---

رقم الايداع بدار الكتب ٢٥٦٢/١٩٧١

## وزارة الثقافة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسي ١١١٧ شارع كورنيش النيل - القاهرة - ج.ع.م.  
تليفون : ٧١٠٥٨ / ٧١٠٥٥      تليفاكس : ٧١٠٥٨  
الإدارة العامة للتوزيع ١٧ شارع قصر النيل - القاهرة - ج.ع.م.  
تليفون : ٤٧٤٣٦ / ٤٥٥٨٩

مكتبات القومية للتوزيع في ج . ع . م \*

### الاسكندرية

٣٦ شارع شريف      ت : ٤٠٠١٢      ١٩ شارع ٢٦ يوليو      ت : ٥٥٠٣٢  
٥ ميدان هراي      ت : ٤٦٣٨٣      ٢٢ شارع الجمهورية      ت : ٩١٤٢٢٣  
١٣ شارع المتدين      ت : ٢١١٨٧      الباب الأصغر بالحسين      ت : ٩١٣٤٤٧  
الاسكندرية ٤٩ شارع سعد زغلول      تليفون : ٢٢٩٢٥      ١ ميدان الجيزة      ت : ٨٩٨٣١٩  
منشور : شارع عبد السلام الشاذل      ٢٦٠٥ القبا      شارع ابن خضيب      ت : ٤٤٥٤  
طنطا : ميدان الساعة      ٢٥٩٤ بسيوط : شارع الجمهورية      ت : ٢٠٣٢١  
المنصورة الكبرى : ميدان المحطة      ٤٢٧٧ بسوان : السوق السباحي      ت : ٢٤٣٠  
المنصورة : أول شارع الثورة      ٣٨٦٤

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان : الشركة القومية للتوزيع - بيروت - شارع سوريا بابة أهياء صمدى وصالحه  
الطرابلس : الشركة القومية للتوزيع - بفسداد - ميدان التحرير - محطة لاطدة

لوكسمبورج وبلجيكا واليمن خارج ج . ع . م

الكويت : وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت  
الأردن : مكتبة المحاسب - عمان  
ليبيا : محمود عارف الشويدي - طرابلس  
اليونان : عبد الله محمد الفيروز - جاكرتا  
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج - تونس  
الجزائر : ٩٢ شارع ديبوش مراد بالجزائر العاصمة  
المغرب : المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع ٤٢ - ٤٤ الشارع الفكي - الاحباس -  
الدار البيضاء

مولدنا      مكتبة بريل - ليد

المكتبة المصرية العامة للتأليف والنشر  
في حارة القديس بولس



احمد عصام الدين

- باحث ثقافى .
- عمل مترجما لمؤتمر الطيران لعول الشرق الأوسط عام ١٩٤٦ .
- واميناً لكتبة المركز الثقافى الدولى عام ١٩٤٧ .
- ومترجما لمجلة «عصر الطيران» عام ١٩٦٠
- له دراسات نشرت فى مجلات «الثقافة» و « القصة » و « المجلة » .
- ومن مترجماته المنشورة « افكار تولستوى الحية » نشرته الدار القومية .

يصدر قريباً

فتح الموشى

ذكريات ودراسات

## المكتبة الثقافية

(جامعة حرة)

- خلاصة الفكر القومى والإنصاف
- تجعل المعرفة متعة تفسد الشعور
- بالحياة ، وسلاماً يساعد على
- الانتصار فى معركة الحياة

يشرف على السلسلة

الدكتور شكرى محمد عياد

Alexandria



0220167

١٥ أبريل ١٩٧١

الثنى ٥ قروش